روايات مصرية للجيب

مغامرات س

7

ممنوع الاقتراب

Looloo
www.dvd4arab.com

مقـدمة

أفقت تدريجيًا .. وتدريجيًا بدأت أتبيّن مدى الكارثة ..

الصداع وجيوش من النمل تجثم على قشرة مخي ، وتـأكل خلاياه ببطء .. ولكن بثقة ..

مقيدة وملقاة على الأرض كالجوال ، ذراعاى خلف ظهرى ، وقدماى متجاورتان على الأرض المتربة أمامي ، وفمى مكمم بشريط لاصق قوى ..

شعرى مشعث ومازلت بملابس النوم المنزلية ..

أحاول رفع رأسى فلا أقوى على ذلك ، تأثير المخدر مـا زال قويًا على ما يبدو ..

كم من الوقت مضى علىّ وأنا أحاول استعادة وعيى كاملا ؟!

اسألوا السيد (آينشتاين) !

أريد أن أهرش فى وجهى ، فى ذراعاى ، فـى جسدى كلـه ، فلا أستطيع ..

أحاول التركيز فلا أستطيع ..

كم من الوقت مضى حتى بدأت أرى المكان الذى ألقونى فيه على الأقل ؟!

مساحة واسعة من الفوضى والتراب والعناكب المخيمة فى الأركان ، مصباح نحاسى وحيد فى السقف ملوث بـروث الحشرات ، الجدران كالحـة ، والأعمـدة الأسـمنتية تحجـب الكثير خلفها ، والأثاث القديم الذى تبرز منه الحشيات القطنية والبايات الصدئة متناثر هنا وهناك ..

النوافذ عاليـة ، وهنـاك بـاب وحيد فـى النهايـة البعيـدة تفضى إليه ثلاث درجات صاعدة ..

إنه قبو إذن ، قبو واسع المساحة تحت أرض فيلا أو قصر ..

أين ؟! لا يهم ..

كل الأقبية التى احتُجزت فيها تتشابه مهما اختلفت الأمكنة ..

بجوارى فأر ينظر إلىّ بعينين قاسيتين ، لولا الشريط اللاصق لملأت الدنيا صراخًا ، فكرت فـى الابتعاد قفزًا ـ على طريقة لاعبات السيرك ـ حتـى لا تمسنـى مخالبـه الشنيعة ، لكنـى فكرت أن الحركة قد تثيره لدرجة أن ينقض علىّ مثلا ..

لن أقوى على تحمُّل صدمة من هذا النوع ، الموت المفاجئ خيار وارد جدًا ..

السكون حل مثلى فى مواجهة فأر مع يدين وقدمين تحت ضغط القيود ..

السكون ومحاولة التناسى والتركيز لاستعادة ذكرى كل ما حدث ..

بجوارى من الناحية الأخرى رأيته ، مقيدًا مثلى من اليدين والقدمين ، الشريط اللاصق على الفم ، النظـارة محطمـة الزجاج وملقاة بجواره ، وهيئته وملابسه فى حال يرثى له من القذارة والاهتراء والتمزق ..

كان يقظًا ، وكان ينظر لى بعينين ذابلتين ..

كم يومًا مر عليه هنا ؟!

فقدت القدرة على التركيز ، لكنها ثلاثـة أيـام علـى الأقل إن لم أكن مخطئة ..

ترى ، ما هو مصيرنا المشترك الرهيب ؟!

إنها ليست لعبة ، فالموت خيار وارد جدًا ..

الموت السهل الذى يداهمك فجأة ، دون مقدمات ..

دون أن تشعر ..

أو أن يشعر بك أحد !

* * *

١ ـ غِيرة مهنيَّة ..

اليوم مختلف قليلاً ..

إن الإفطار فى مقهى (بينوز) عادة لا أداوم عليها ، فهم لا يصنعون النسكافيه كما أحبه ، لكن (هشام) يستطيع إقناعى أحيانًا بتناول الإفطار هناك ، بأن يتولى هو عملية الدفع ..

هذا هو اليوم الأول من الشهر الجديد ، مما يعنى حالة إفلاس تام بالنسبة لي ، لا حل لها إلا بأن يحن علىَّ أبى بالمصروف ، أو الانتظار أمام مكتب صراف جريدة (الأربعاء) حتى أقبض حساب ما تم نشره لى طوال شهر كامل ، أى على مدى أربعة أعداد أسبوعية ..

اليوم مختلف قليلاً ، فاليوم سأقبض أول راتب لى لا كمراسلة حرة ، وإنما كموظفة محترمة تتبوأ منصب رئيسة قسم التحقيقات مرة واحدة ..

لكن هذا ليس موضوعنا ..

اليوم مختلف قليلاً ، فأنا والنوم يسرح فى شعيرات عينى الدموية المنتفخة أنظر فى عدد الجريدة الصادر اليوم حاويًا تحقيق المغامرة الماضية ، وأمامى قطعة من الكرواسون والنسكافيه ، بينما (هشام) أمامى يتناول بالشوكة قطعة

كبيرة من كعكة دسمة بالكريمة ، قطعة كبيرة إلى حدّ أنها لوثت أطراف شاربه الكث السفلية ..

مددت إليه يدى بمنديل المائدة دون أن أرفع عينى عن تحقيقى المنشور فى الجريدة ، وتناول هو المنديل صامتًا بدوره ومسح فمه جيدًا ، ثم وضع المنديل والشوكة على الطاولة ، وأخذ ينظر إلىّ مليًا ، وأنا رغم ملاحظتى إياه لا أرفع إليه عينًا ..

قال (هشام) محاولاً فتح حوار ما ، أى حوار :

ـ قرأت تحقيقك الجديد ، إن أسلوبك يتطور يومًا بعد يوم ..

دون أن أرفع إليه عينًا سألته فى اقتضاب مبلل بالنعاس :

ـ حقًا ؟!

ثم إنى سألته مجددًا ، وأنا أقلب الصفحة لأطالع صفحة أخرى من باب حب الاستطلاع :

ـ .. ومتى قرأته إن كان العدد صادرًا بتاريخ اليوم ؟!

هزّ كتفيه وقال نافيًا عن نفسه تهمة لم أوجهها له :

ـ مساء أمس ، الصحف يتم توزيعها مساء .. ظننتك تعرفين هذا ..

عدت إلى الاقتضاب ، محمولاً فوق تنهيدة هذه المرة :

ـ أعرف !

صمت إلا من موسيقى ناعمة صادرة من سماعات المقهى المزروعة فى السقف ، غير المتناغمة مع ما تعرضه شاشة التليفزيون الصامتة بالأعلى من مذابح وحروب ومجاعات وفيضانات ، على قناة (يورونيوز) الإخبارية !

سألنى (هشام) مجددًا محاولاً فتح حوار ما ، أى حوار :

ـ متى ستأتين لرؤية التطورات فى تجهيز الشقة ؟! إن العمال على وشك الانتهاء منها فى غضون أيام قليلة ..

دائمًا العمال سينتهون من الشقة فى غضون أيام قليلة لا تنتهى أبدًا !

ـ سوف آتى بالتأكيد ..

إلحاح من جهته :

ـ متى ؟!

وإمعان فى التهرب من جهتى :

ـ غدًا !

دائمًا الغد الذى لا يأتى أبدًا !!

ثم صمت ، وموسيقى ، ونشرة أخبار ..

عاد (هشام) إلى محاولاته المستميتة لفتح حوار ما .. أى حوار :

ـ الغد موعد مناسب تمامًا ، وهو مناسب أيضًا لدعوة على الغداء ..

قلت وأنا أقلب صفحات الجريدة تنازليًا من الخلف للأمام ، وهى عادتى الأثيرة فى قراءة أى مطبوعة دورية :

ـ أرى أن نكتفى بهذا القدر من الدعوات ؛ حتى لا تشهر إفلاسك قريبًا !

ابتسم (هشام) وهو يقول :

ـ لست أنا الذى أدعوك ..

مواصلة تقليب الصفحات تساءلت متوقعة دعابة لفظية سمجة :

ـ من إذن ؟!

لكن الأمر لم يكن مجرد دعابة لفظية سمجة :

ـ عمتك (وفاء) .. أمي ، وحماتك المستقبلية ..

لم يكن كذلك على الإطلاق !

كنت قد بلغت الصفحة الأولى من الجريدة عندما نظرت إليه أخيرًا فى دهشة لم أستطع مداراتها ، دهشة قرأها (هشام) فى عينى على الفور ، فسارع بالتفسير :

ـ .. غدًا عيد ميلاد شقيقتى (هند) ، وبهذه المناسبة اقترحتُ

على أمى أن تدعوك للغداء ؛ لتقضى معنا اليوم حتى موعد الحفل الصغير فى المساء .. ستكون فرصة جميلة للتقارب العائلى ..

هززت رأسى فى تفهُم ، وأنا أعود إلى الجريدة :

ـ كانت فكرتك إذن ..

انتبه (هشام) لزلة لسانه ، فسارع يحاول التصحيح :

ـ أقـ .. أقصد أنها هى التى اقترحت .. إنها لم ترك منذ مدة طويلة لذا .. أعنى ..

لا يحتاج الموقف إلى توضيح ..

إن والدة (هشام) ـ مثل أى أم ترى ابنها ملك العالم المتوّج ـ تتمنى له زوجة أسطورية تليق به ، جميلة ورقيقة ومطيعة ومستعدة لقتل نفسها من أجله ، وأنا من وجهة نظرها لست أهلا له ؛ لأننى لا أملك الحد الأدنى من المواصفات القياسية ، ولست مطابقة لكراسة الشروط ..

زوجة من طراز (ماهيتاب) ابنة خاله مثلاً هى التى تليق به من وجهة نظرها بالطبع !

إنها لم تصرّح بها علانية ، لكن كل تصرفاتها تنطق بما تضمره ، كل خلجة فى وجهها تصرخ بذلك عندما تراني ، كل نظرة من عينيها ، كل كلمة رقيقة مصطنعة تتفوه بها فى وجهى ..

لكننى اعتدت على التجاهل المؤلم الدفين الذى يحلو لى تكليله باسم (السمو فوق مستوى الأحداث) ..

ـ لا بأس ..

قلتها وأنا أنظر فى الصفحة الأولى ، وأحاول التركيز من وراء عويناتى فى مقال السيدة (ألفت همام) الافتتاحى :

ـ .. سوف آتى !

غمغم (هشام) وقد أذهلته سرعة موافقتى :

ـ حقًا ؟! ستأتين ؟!

هززت رأسى بالإيجاب ، وأنا أقرأ فى سطور السيدة (ألفت) تحت صورتها الباسمة فى الصفحة الأولى ، التى تتحدث فيها عن الفساد المستشرى فى جميع مناحى الحياة من حولنا ، وكيف يجب أن تتضافر قوى المجتمع كلها للوقوف فى وجهه حتى نقهره و ... إلخ

عندما أصبح رئيسة تحرير سوف أحرص على أن تكون مقالاتى الافتتاحية أقل تقليدية ..

ـ أجل ، حقًا .. سوف آتى ..

قلتها و أنا أواصل القراءة ، بينما عاد الصمت الموسيقىّ المغموس فى صور نشرة الأخبار يخيم على جلستنا من جديد ..

- (نسرين) ، هناك أمر أود التحدث فيه ..

قالها (هشام) هذه المرة وهو يعرف ما يريد قوله ، لا مجرد محاولة خرقاء أخرى منه لفتح حوار ما ، أى حوار ، وكنت أعرف أنه يريد التحدث عن الدبابيس التى تخزُ ضميره ، غير أنى تظاهرت بالاستغراب ، وسألته مقطبة :

- أى أمر هذا ؟!

تردد ، واحمرّت وجنتاه الناعمتان كوجنتى طفل مذنب ، غير أنه قال فى النهاية :

- الأمر الذى قررتِ بسببه أن تتركينى خلعة خاتم الخطوبة ، ولدهشتى لم تسألينى عنه على الإطلاق منذ ارتديتِها مرة أخرى ..

طويت الصحيفة وأرسلت إليه نظرات أشعلت الدماء فى وجهه أكثر ، ثم سألته فى جمود :

- وهل لديك ما يمكن أن تقوله ؟!

- بالتأكيد ..

أطلقها كطلقة رصاص ، يبدو أنه قد أعد دفوعه جيدًا ..

تنهدت تنهيدة طويلة ، وقلت منحية الجريدة جانبًا :

- (هشام) ، انظر .. لو كنت أشك فيك للحظة لما قررت

العودة إليك ومواصلة رحلة حياتى معك ، صحيح أننى رأيتك بعينى مع (ماهيتاب) ابنة خالك فى المطعم ، وظننت بك الظنون لحظتها ، وما أدراك يا عزيزى ما الشعور بالخيانة وانهيار الثقة ، لكنى ما كنت لأعود عن قرارى لولا يقينى بأن الأمر تم فى إطار من البراءة ، من جهتك على الأقل ..

ازدرد (هشام) لعابه بصعوبة ، وهو يسألنى :

- وما سر يقينك هذا ؟! هل تحدثت مع (ماهيتاب) ؟!

هززت رأسى بالنفى ، وقلت فى تهكُم مُرّ :

- كلاّ .. صحيح أننى لا أعلم شيئًا عن تفاصيل وأسباب ما رأيته ، لكن براءتك جاءت من آخر جهة تتوقعها يا عزيزى ..

ازدرد (هشام) لعابه بصعوبة مرة أخرى ، وهو يسألنى :

- وهل يمكننى معرفة هذه الجهة ؟!

عدت أقول فى تهكُم لذيذ هذه المرة :

- بالطبع ..

ثم نظرت فى عينيه مباشرة ، قائلة وأنا أعرف كم سيضايقه أن يعرف هذا :

- .. السيد (س) !

★ ★ ★

(ـ حاولى اللحاق بالضحية التالية إذن !

فسألته :

ـ (هشام) ؟!

ليجيبنى :

ـ بالمناسبة ، إنه برىء مما تظنين أنه يفعله ..

ثم ...

توت توت توت ..) ..

* * *

وضع (فرج) ـ ساعى الجريدة والمسئول عن المطبخ ، لو لديك تعريب للفظ office boy فهو ينطبق عليه حتمًا ـ الظرف المنتفخ قليلاً على المكتب أمامى ، ثم مد يده بورقة تحمل الكثير من السطور والأرقام قائلاً :

ـ الأستاذ (عباس) يطلب منك التوقيع ها هنا ..

تركت ملف التحقيقات الجديدة الواردة للجريدة من الصحفيين العاملين بالقطعة ، والتى طلبت السيدة (ألفت) منى قراءتها ورفع تقرير عنها كإحدى مهام وظيفتى فى رئاسة القسم ، ونظرت إلى (فرج) من خلف عويناتى فى تساؤل ، فتطوع بإجابته مشكورًا دون أن أطلب منه ذلك :

ـ .. إنه راتب الشهر ..

أمسكت بالورقة التى يشهرها فى وجهى ، وانعقد حاجبىّ وأنا أطالع بياناتها قبل أن أهتف فى استنكار :

ـ ما هذا ؟!

هزّ (فرج) كتفيه فى غباء ـ أو لعله تغابى ـ قائلاً من جديد :

ـ لقد قلتها ، إنه راتب الشهر !!

نعم ، راتب الشهر مع خصومات تصل به إلى حد المنتصف !

ـ ما هذا التهريج ؟!

هتفت بها منزعجة وأنا أنهض من خلف مكتبى ، يتابعنى (فرج) بعينيه الخاويتين ، وسألته من باب تحصيل ما هو حاصل بالفعل ، فى طريقى نحو باب غرفتى :

ـ أين الأستاذ (عباس) ؟!

ـ فى مكتبه يجهّز رواتب الشهر !

تحصيل حاصل ..

انطلقت كالسهم نحو غرفة الخزانة ، والدم يغلى فى عروقى ، واندفعت عبر الباب لأرى الأستاذ (عباس) ببذلته الصيفية الكالحة ، وصلعته اللامعة وحاجبيه الأشيبين ، منهمكًا فى عد رزم النقود دون أن يلتفت إلىّ ..

ـ ما هذا يا أستاذ (عباس) ؟!

سألته فى تروٍّ وأنا أضغط أسنانى ، بينما رفع الأستاذ (عباس) عينين ناعستين تنظران من خلف نظارة ذات عدسات سميكة نحوى ؛ ليرانى ألوح بالورقة التى يطلب إمضائى عليها ..

تناول الورقة منى ونظر فيها ، ثم قال فى بساطة مفتعلة تخفى خلفها الكثير :

ـ هذا إقرار استلام الراتب الذى يجب أن يوقعه الموظف الذى ...

قاطعته ، غير واعية للهجتى الحادة التى لا يجب أن أخاطب بها شخصًا يفوقنى سنًا بعشرين عامًا على الأقل :

ـ أعلم ، أسألك عن الراتب نفسه ..

ـ ماذا عنه ؟!

البساطة المفتعلة التى تخفى خلفها الكثير ، قلت بلهجتى الحادة :

ـ ليس هذا هو الرقم الذى يجب أن يتقاضاه رئيس قسم !

بنفس البساطة الهادئة رفع الأستاذ (عباس) نحوى ورقة أخرى ، وقال :

ـ بالنظر فى كشف توقيعات الحضور والانصراف سيكون الأمر مفهومًا يا آنسة ..

بكل استنكار الدنيا هتفت فيه :

ـ ماذا ؟! حضور وانصراف ؟!

وبكل برود الدنيا استمر يتحدث :

ـ الموظف هنا يجب أن يعمل مدة سبع ساعات فى ستة أيام من الأسبوع ، وبالقياس إلى هذه الحقيقة البسيطة سنجد أن لديك أكثر من نصف الوقت غياب دون إجازة ، وبالتالى ...

صرخت وقد نجح فى استفزازى إلى حد أن لوزتى كادتا تقفزان من حنجرتى :

ـ هذه الحقائق يمكنك تطبيقها على موظف فى ديوان حكومى أو مصلحة خدمات ، لا مؤسسة صحفية يحتاج الصحفى الحقيقى فيها إلى قضاء معظم وقته فى الخارج ..

وضع (عباس) الورقتان متجاورتين أمامه على سطح مكتبه ، وقال :

ـ رئاسة القسم وظيفة لها متطلبات ، ظننتك تعرفين هذا يا آنسة ..

نطق الشطر الأول من عبارته بكثير من البطء والتوكيد ، كأنه يريد أن يبلغنى رسالة قصيرة مفادها أننى لا أصلح ، وأننى أخذت ما لا أستحق !

كأننى لا أصلح بالفعل ، أو كأننى حقًا آخذ ما لا أستحق ..

ـ هكذا إذن !

قلتها فى تحدٍ ، وألقيت بمظروف الراتب المنتفخ قليلاً على مكتبه ، ثم استدرت مغادرة دون كلمة واحدة ..

عندما تبلغ الأمور هذا الحد من التأزم ، يكون الانسحاب التكتيكى خيارًا مثاليًا ، ويكون البديل هو اللجوء للقيادة العليا حتى يعود الحق السليب إلى من يستحقه ..

وهكذا اتجهت من فورى إلى غرفة رئيسة التحرير ، السيدة (ألفت همام) التى قامت بتعيينى فى هذا المكان ، والتى فى يدها وحدها أن تحفظ لى ما تبقى من كرامتى المهدرة ، ناهيك عن حقوقى المادية الضائعة ..

كنت عصياء يدفعنى الغضب دون تفكير ، فتجاهلت نداء مدير مكتبها بالانتظار قليلاً ، ودفعت باب مكتبها الخشبى بيدى فى عصبية ، لأراها جالسة خلف مكتبها وأمامها ضيف أنيق لا أجهله ..

موقف محرج بالتأكيد ، للجميع ، وأنا أولهم ..

ـ أهلاً (نسرين) ..

لدهشتى هتفت السيدة (ألفت) بالعبارة فى ترحيب ، وأشارت نحو الباب الذى لحق بى عنده مدير مكتبها مخاطبة إياه فى حزم :

ـ من فضلك أغلق الباب ..

ابتسم الضيف ناظرًا نحوي ، والخجل يجعلنى حمقاء مع مرتبة الشرف الأولى ، قائلاً بينما ينغلق الباب من خلفى :

ـ هذه إذن نجمة المستقبل ، (نسرين الجبالى) ..

قالها الضيف الذى تحاشيت النظر نحوه لأول وهلة ..

وجه مربع مريح تشير ملامحه للأربعينات ، نظارة أنيقة ، شارب مشذب ، شعر مصفف بعناية يزحف إليه الشيب من أسفل ، وبسمة أبوية جميلة ..

قالت السيدة (ألفت) ، وهى تشير إلىّ باسمة بدورها :

ـ ابنتى وتلميذتى ، ورئيسة قسم التحقيقات أيضًا ..

صفّر الضيف وهتف فى دهشة :

ـ غير معقول .. فى هذه السن ؟!

نظرت إلىّ السيدة (ألفت) وقالت :

ـ لا أخالك تجهلين الأستاذ (هلال رضا) يا عزيزتى (نسرين) ..

فاضطررت إلى زفع وجهى والنظر ، والنحنحة ثم القول المتحشرج :

ـ بالطبع ..

ومن ذا الذى يجهل قامة صحفية عملاقة مثل (هلال رضا) ؟!

إنه واحد من جيل الرواد فى الصحافة الحزبية والمستقلة ، قلم شريف وقلب شجاع ، واحد من القلائل الذين يمكن أن ترفع لهم قبعتك وتحييهم بصدق ، لمواقفهم من قضايا وطنية وعالمية تتعلم منها كيف تكون المواقف ..

هو الآن رئيس تحرير جريدة (آراء) المستقلة ، التى تنافس جريدة (الأربعاء) فى صداقة ، إذ تكاد أرقام التوزيع للجريدتين تكون متطابقة ..

لم أقو على قول كل هذا ، وعندما تذكرت الأمر الذى جئت بصدده خجلت أكثر ، وأطبقت شفتىّ على الصمت المبين ..

قال الأستاذ (هلال) فى أريحية المعلم الذى يشجع تلميذه :

ـ إننى مواظب على قراءة تحقيقاتك المثيرة مع ذلك السيد الغامض يا فتاة ، وأستطيع أن أخبرك بخبرتى أنك ستكونين ذات شأن عظيم فى المستقبل ..

يا لها من شهادة أتمنى لو وضعتها فى إطار وعلقتها على جدار إنجازاتى المحدودة ، لكنى لم أقل سوى :

ـ أشكرك .. يا سيدى !!

والتفت الأستاذ (هلال) إلى السيدة (ألفت) سائلاً إياها فى مزاح جاد :

ـ أين تعثرين على هذه المواهب يا (ألفت) ؟!

عادت السيدة (ألفت) توجه بصرها نحوى ، وتقول بلهجة تحمل من المعانى الكثير :

ـ لم أعثر عليها ، هى من عثرت علىّ ..

خاطبنى الأستاذ أخيرًا بقوله :

ـ لو أردتِ توسيع نطاق تعاملاتك الصحافية لتشمل جريدتى فسأكون من أشد المرحبين بك ، ثقى من هذا يا فتاة ..

أردت أن أبتسم وأشكره ، لكن السيدة (ألفت) سبقتنى :

ـ كلا ، (نسرين) اكتشافى ولا يمكن أن أدعها تعمل فى مكان غير هنا !

ثم إنها ـ ببسمتها التى تدارى انزعاجًا حقيقيًا من الفكرة التى طرحها الأستاذ (هلال) ـ نظرت نحوى وقالت :

ـ .. ماذا كنتِ تريدين يا (نسرين) ؟!

اللحظة الحرجة التى لابد آتية قد أتت أخيرًا :

ـ فى الحقيقة .. إن .. أعنى .. الراتب .. ربما نتحدث فى وقت لاحق ..

ـ تعالى ..

أشارت نحو غرفة الاجتماعات الصغيرة الملحقة بغرفتها واعتذرت للأستاذ (هلال) بلباقة ، وفى غرفة الاجتماعات الصغيرة رويتُ لها موقفى مع الأستاذ (عباس) ، فوعدتنى بالتصرف ومعاقبته ، وبأن أتسلم راتبى كاملاً مكملاً ..

خرجت من مكتبها وأنا أتنفس الصعداء ، ونشوة الظفر الكهربية تغمرنى بشلالات القشعريرة ، وفى غضون ساعة كان راتبى كاملاً على مكتبى مع خبر سربه إلىّ (فرج) :

ـ الأستاذ (عباس) ينوى تقديم استقالته ..

فتنفست الصُعداء أكثر ، ومضيت فى إعداد تقرير التحقيقات الجديدة ، لكن اليوم لم يكن يود أن ينتهى على خير ..

كان لابد من مضايقة أخرى عابرة ، لكنها تحمل من المعانى الكثير ..

★ ★ ★

ـ ما هذا التهريج ؟!

صاح بها (حسين مرشدى) منزعجًا فى غرفة مكتبى ، فقطبت مشيرة له بسبابتى وأنا أقول :

ـ أخفض صوتك من فضلك ..

(حسين مرشدى) صحفى حر يعمل فى عدة صحف منها (الأربعاء) ، ويواظب على وجود أكثر من مشاركة له فى كل عدد ، من تحقيقات إلى أخبار إلى تقارير إلى صور حفلات ولقاءات المشاهير ، باختصار إنه رجل كل شىء ، حقيبته السوداء على كتفه تحوى مسجلا صغيرًا وكاميرا رقمية ونوتة لتدوين المستجدات ، صحيح أنه فى تقنية الكتابة يساوى صفرًا أو أقل ، حتى إن أصابعه كلها تعاد كتابتها من جديد ، إلا أنه يعرف كيف يكون موجودًا ، وهذه مهارة لا يملكها الكثيرون ..

هيئته مثالية بالنسبة لرجل انتهازى ، ضخم يملك كرشًا كبيرًا ، جبهته عريضة ونصف أصلع ، الشعر الغزير يظهر جليًا بداية من صدره ، ويبدو واضحًا بكثافة فى أذنيه ، وتفوح منه دائمًا رائحة عرق كريهة !

عاد (حسين مرشدى) يصيح ملوحًا بملف من أوراق الدشت فى يده :

ـ كيف أخفض صوتى ، وأنا أسمع منك ما أسمع ؟!

قلت دون أن ينفك تقطيبى الشنيع :

ـ إننى أؤدى مهام وظيفتى يا سيد (حسين) ، لقد قرأت التحقيقات الجديدة التى قدمتها إلينا ، ورفعت بها تقريرًا إلى السيدة رئيسة التحرير الأسبوع الماضي ، وهى مهمة أؤديها أسبوعيًا بصفتى رئيسة قسم التحقيقات ..

نظر فى الملف الذى بين يديه ، سائلاً فى سخرية :

ـ وبصفتك رئيسة قسم التحقيقات العبقرية ، وفريدة عصرك وزمانك ، ترين أن جميع التحقيقات التى قدمتها الأسبوع الماضى لا تصلح للنشر ..

قلت محاولة ضبط النفس حتى آخر مدى :

ـ راقب لسانك من فضلك ، إن حيثيات عدم الصلاحية مرفقة بالتقرير الذى ...

ضحك ضحكة عصبية عالية وهو يقول :

ـ حيثيات ماذا ؟! يا إلهى .. كم هذا مبهج ..

استفزنى حتى أقصى حدٍّ ، أستطيع الآن إلقاء منفضة السجائر القابعة فوق مكتبى نحوه ، لأهشم وجهه دون ذرة من تأنيب الضمير ، لكنه سرعان ما بتر ضحكته الهستيرية ليستعيد سمته الجاد ، وليتحدث فى لهاث بينما ينتفض جسده الممتلئ من فرط العصبية :

ـ .. اسمعى أيتها الطفلة ، فى كل الأحوال لن أخسر شيئًا وستكونون أنتم الخاسرون ، إن عشرة صحف على الأقل سوف تتهافت لنشر هذه التحقيقات ، ومع هذا ، ها هى ذى ..

مزق الملف أمامى فانتفضت للمفاجأة ، غير أنى حاولت التظاهر برباطة الجأش بينما يلقى هو بقايا أوراق الملف على الأرض :

ـ .. عندى غيرها الكثير ، لكنى أريد أن ألقنك درسًا يا فتاة الجريدة المدللة التى يتهامس الجميع عنها .. لا تتقمصى الدور فهو أكبر منك ولا يصلح لك بالمرة ، وحيثياتى أنا الآخر جاهزة ومرفقة .. هل ظننتِ أيتها الساذجة أنك تنعمين بمنصب تستحقينه بالفعل ؟!

قابلته بصمت وجمود ..

وأسئلة تمور تحت قشرة دماغى التى تهتز بفعل زلزال مباغت بقوة ألف ريختر ..

ـ .. هل سألتِ نفسك مرة إن كنت بالفعل جديرة بهذا المنصب الفضفاض ؟! ما الذى جعل رئيسة التحرير تختارك أنت بالذات ؟! ، أنت بالذات خبرتك الصحفية محدودة لا تتجاوز البضعة تحقيقات ، تخرجت من كليتك منذ بضعة شهور فحسب ،

لا تاريخ ولا سيرة ذاتية ولا أعمال جليلة ، مجرد تحقيقات مفبركة عن بطل غامض لا وجود له ، قصص بوليسية لإلهاء القراء وبيع الوهم لهم معباً فى زجاجات غير صالحة للشرب .. المسألة فيها خطأ كبير إذن ..

صمت وجمود من جهتى ، بينما ينهال هو علىّ بسياط الكلام المفرقعة :

ـ .. استمعى للهمسات الدائرة من حولك ، وستصدمك الحقيقة أيتها العائشة فى الخيال .. إلى اللقاء ، وستندمون على تركى إياكم ، كما ستندمون على تولية طفلة مثلك منصبًا مهمًا وحيويًا كرئاسة قسم ، أستطيع أن أعدكم بهذا ..

قالها وتركنى ..

خمس دقائق كاملة من الصمت والجمود وحدي ، حاولت خلالها أن أتجاوز الموقف ..

خمس دقائق ، ثم ..

ضغطت زر استدعاء (فرج) وطلبت منه تنظيف الحجرة من قصاصات الورق المتناثر عبر الملف الممزق ..

وطلبت منه كوبًا من النسكافيه ..

حاولت كتابة تقرير عن التحقيقات الجديدة الواردة هذا الأسبوع ..

حاولت دون جدوى ..

غادرت الجريدة واستقللت سيارة أجرة إلى المنزل ..

وطوال الطريق كان السؤال يطن فى رأسى كالصداع ..

هل كان الأمر مجرد غيرةً مهنيةً بين اثنين يعملان فى مجال واحد ، أم هل يمكن أن ... ؟!

★ ★ ★

٢ ـ قرار مصيرى ..

غدًا يوم آخر ..

سألنى (هشام) وبسمته العريضة تملأ وجهه الطفولى المشرق :

ـ ما رأيك يا مولاتى الملكة فى قصرنا المتواضع ؟!

قصر متواضع بالفعل ، شقة من غرفتين وصالة لا يمكن وصفها بالضيق أو الاتساع ، إنها الشقة التى يقول (هشام) دائمًا أنها سوف تصبح جاهزة نهائيًا خلال عدة أيام ، والتى ما زال أمامها شهرين على الأقل من العمل المتواصل فى الواقع ، هذه ملاحظتى الأولى حتى الآن ..

أخذت أنظر هنا وهناك كأنى أعيد استكشافها ، محاولة إقناع نفسى أننى فى القريب العاجل سوف أترك أبى وشقتنا الصغيرة التى شهدت ميلادى وأجمل ذكرياتى ، لأبدأ حياتى من جديد هنا ، فى ذلك الحى النائى ، (المعادى) ..

سنة الحياة لإعادة إعمار الكون ، فهل من معترض ؟!

ـ لا بأس ..

انتهى تركيب سيراميك الأرضيات فى الصالة الرئيسية وغرفتى النوم الواسعتين ، لكن الحوائط ما زالت أسمنتية وتحتاج لدهان ، بالإضافة لعدة صغائر مثل دورة المياه والمطبخ وبعض أخشاب النجارة التى ما زالت تحتاج إلى كثير من الوقت والمجهود والأموال ..

عدة أيام ؟! إن (هشام) لمتفائل كبير ..

هتف بى (هشام) وهو يسبقنى إلى غرفة لم يتم تركيب بابها بعد :

ـ تعالى ، أريد أن أعرف رأيك فى أمر ما ..

فلحقت به دون حماس ، وداخل الغرفة رأيته يشير إلى أحد حوائطها الأسمنتية ، حيث ارتسمت خطوط عرضية سميكة لدرجات مختلفة من لون واحد ، بينما بالأسفل كانت هناك دلاء الدهان وبجوارها أدوات النقاشة متناثرة دون نظام ..

أشار (هشام) بسبابته إلى خط منها وهو يسألنى بدوره :

ـ ما رأيك ؟! أى درجة من هذا اللون تصلح أكثر ؟!

ـ تصلح لأى شىء ؟!

رفع إلىّ وجهه الباسم فى سعادة طفولية مبالغ فيها كأنه بطل مسلسل كارتونى ، وهو يقول :

ـ لطلاء غرفة النوم طبعًا ..

وأشار إلى درجة أخرى متابعًا :

ـ .. كنت أفضل هذا لكن عامل الطلاء أخبرنى أنه يتسخ بسرعة ، لذا ...

قاطعته ملوحة فى ضجر :

ـ أى شىء سيفى بالغرض !

نظر إلىّ مندهشًا من ردى البارد ، لكنه تجاوز شعوره وأشار إلى الغرفة فاردًا ذراعيه وهاتفًا :

ـ انظرى ، هنا ستبدأ حياتنا معًا ، أريد أن نملأ هذا المنزل أطفالاً .. نصف دستة على الأقل ..

أى فتاة فى موقفى كان وجهها سوف يحمر خجلاً ، وربما وضعت ذراعها فى ذراع خطيبها ومالت برأسها على كتفه فى صمت رومانسى ، لكنى ما زلت (نسرين الجبالى) ..

لقد نظرت فى ساعة معصمى ، ونفخت فى ضيق قائلة :

ـ هيا ، لقد تأخرنا ..

التفت (هشام) نحوى مبهوتًا من رد فعلى ، وغمغم فى استنكار :

ـ تأخرنا ؟! على ماذا ؟!

قلت وأنا أهرش فى عنقى بأظافرى الطويلة فى عصبية تركت آثارها واضحة على الجلد :

ـ إننى مدعوّة على الغداء فى منزلكم على ما أذكر ..

نظر (هشام) فى ساعة معصمه وصاح فى استنكار أشد :

ـ لكن الساعة الآن الحادية عشر صباحًا !

ـ أعلم ..

قلتها وأنا أهرش فى جلد عنقى أكثر ، ثم أردفت :

ـ .. يجب قبلها أن أمر على متجر للهدايا قبلها ، إن عيد ميلاد شقيقتك (هند) اليوم كما أخبرتنى ، أليس كذلك ؟!

ـ بلى ..

غمغم بها (هشام) فى خيبة أمل ، وقد أدرك ألا فائدة من المحاولة معى ..

ـ .. إن مزاجك سيئ للغاية اليوم ..

قلتها وهو يدير محرك السيارة أسفل المنزل ، لكنى لم أسمعه ..

ـ (هشام) ، أريد أن أعرف ..

ـ تعرفين ماذا ؟!

سألتنى متلهفًا وهو يضغط دواسة البنزين ، وقد ظن أننى سأقول جملة مفيدة أخيرًا ، لكنه فوجئ بى أوجه إليه سؤالاً مباغتًا ..

- هل حقًا أصلح رئيسة لقسم التحقيقات ، وأنا بعد فى هذه السن ؟!

- ....!

انعقد لسانه ، وانطلقت بنا السيارة ..

* * *

هل هناك علاقة ما بين نشأتى كطفلة وحيدة ، دون أم أو أشقاء أو صديقات من نفس السن ، وبين شعورى العميق بالاغتراب فى أى مناسبة اجتماعية أحضرها ، كدعوة على الغداء عند حماتى المستقبلية مثلاً ؟!

ربما ..

لقد دخلت المنزل وراء (هشام) باسمة فى صمت كفتاة مهذبة ، بسمة تخفى وراءها وحشة ، وصمتًا يقعى فوق فوهة بركان خامد ، واستقبلتنى العمة (وفاء) والدة (هشام) بالأحضان والقبلات البلاستيكية المفتقدة للدفء والحميمية ، هشت فى وجهى وبشت ، وأشارت لى أن أجلس

فى الصالون ريثما ينتهى إعداد الغداء فى غضون دقائق ، فحملت اللفافة الحمراء الصغيرة التى تحوى هدية شقيقة (هشام) وجلست فى استكانة ، كأنى لعبة قديمة تم وضعها فوق رفٍ ..

رائحة الطعام آتية من الداخل ، لكن أمعائى لا تتحرك ، وشهيتى تطايرت كبخار ماء ، وقلبى يخفق فى عنف كالمقبلة على اختبار صعب ..

أتى (هشام) خلفى إلى غرفة الصالون وأظهر نحوى الدفء والحميمية الحقيقيين ، على الأقل هناك واحد فى هذا المنزل غير متحفز ناحيتى :

- القمر اليوم قد أشرق داخل منزلنا الصغير ..

هززت رأسى نحوه فى امتنان كاذب ، وأنا أدعو الله أن ينتهى هذا الموقف الصعب على خير ..

تبًا للاجتماعيات والمجاملات وكل ما يمت إلى هذه الفئة بصلة ..

سألنى (هشام) :

- .. هل تحبين شرب شىء قبل الغداء ؟! أم ...

كنت أستمع إليه ولا أستمع ، وأفكر فى مقاومة اغترابى بثورة مفاجئة ..

ـ .. إن أمى قد أعدت اليوم الملوخية التى أخاف أن تلتهمى أصابعك وراءها !

(هشام) يتحدث وأنا فى واد آخر ، أفكر :

نعم ، الثورة المفاجئة كفيلة بتجاوز ارتباكى وحرجى ، والأهم .. اغترابى ..

يبدو أنه لاحظ شرود عينى فى المجهول ، فمط شفتيه ـ بارعة أنا فى تخييب آماله دائمًا ـ وهم بالنهوض قائلاً بامتعاض :

ـ .. سأرى إن كانت أمى تحتاج إلى مساعدة وأعود إليك فى خلال ...

هتفت فيه وقد تدفق الحماس فى دمى فجأة كعقار فورى المفعول :

ـ كلا ، ابق انت .. سأساعدها أنا !

نظر (هشام) نحوى عابسًا وهو يسأل نفسه إن كان الجنون قد أصابنى فعلا ، ولم ينطق كديدنه عندما يواجه ما لا يفهمه !

انتصبت واقفة كالمسلة أمامه ، وأنا أواصل الهتاف :

ـ .. أين المطبخ ؟!

ودون انتظار إجابته اندفعت خارج الغرفة ، واصطدم كتفى بحافة الباب لكنى لم أتوقف ، لم أرد أن أكتشف حماقة موقفى على ما يبدو ..

فى لحظة كنت فى المطبخ ، وفوجئت بى والدة (هشام) أندفع ناحيتها ، وأمسك منها طبق السالط الأخضر الذى كانت تحمله فى اتجاه السفرة بركن الصالة ..

لم تنطق المرأة ذهولاً ، وتركتنى أحمل طبق الملوخية ، ونظرت فى تساؤل وتَعَجُّبٍ إلى ابنتها ، (هند) شقيقة (هشام) الكبرى التى تساعدها فى المطبخ ، والتى تجاوزتها دون سلام أو كلام فى خضم ثورتى التصحيحية المفاجئة ..

تجاوزتها رغم أن عيد ميلادها اليوم ، وأن هديتها الصغيرة ملفوفة بورق أحمر لماع على أريكة غرفة الصالون ..

ولم يكن هناك مفر مما حدث ..

صوت الارتطام خارج المطبخ ، وصراخ الأم وابنتها مع هتاف (هشام) الذى غادر غرفة الصالون مفزوعًا :

ـ ماذا حدث ؟!

لم يكن هناك مفر ..

أنا فى منتصف الصالة ساقطة فوق وجهى ، والسائل الأخضر مسكوب فوق السجادة العجمية التى تتوسط الصالة ، متناثرًا فى كل الأنحاء ..

حاول (هشام) بسرعة أن ينحنى نحوى ويوقفنى ، لكنى كنت فى حالة يرثى لها ..

غارقة فى الملوخية ..

وأكاد أبكى قهرًا !

* * *

على مائدة الغداء كنت أرتدى ملابس أخرى أعارتنى إياها (هند) التى يفوق وزنها وزنى بثلاثة أضعاف على الأقل ، (أسبح) فى الملابس تعبير أدق من (أرتدى) فى هذا الموقف بالذات ..

(هند) تكبر (هشام) ـ وتكبرنى أيضًا ـ بعامين ، ومع هذا فإن أحدًا لم يتقدم لخطبتها بعد ، ونفسيتها غير متسامحة بالمرة مع موقف أخيها الذى قرر الزواج قبلها ، لكنها تخفى هذا كله طبعًا خلف قناع من البسمات والأحضان والقبلات وغيره ..

على مائدة الغداء ، بعد أن أخذت دشًا مؤقتًا بلل شعرى

وكرامتى ، وبعد أن قامت حماتى المستقبلية بحملة تنظيفية محدودة على الصالة زال على أثرها اللون الأخضر نوعًا ، بينما بقيت آثاره الباهتة ورائحة النقلية والثوم تملأ الخياشيم ..

على مائدة الغداء هذه كنت أحاول التظاهر بالأكل ..

عبثًا ..

لقد أفسدت حماقتى كل شىء ..

قانون ميرفى صريح : كل شىء يمكن أن يسير بصورة سيئة سوف يسير بصورة سيئة ، لكن ليس إلى هذا الحد يا سيد (ميرفى) !

الصمت وأصوات الملاعق والأنفاس ، فقط ..

ـ الحمد لله ..

قلتها ونهضت ، فنظر (هشام) إلى طبقى الذى ما زال مليئًا وهتف فى كرم :

ـ لم تأكلى شيئًا ..

ـ شبعت ..

قلتها بعد أن نهضت ، فسألتنى والدته :

ـ هل تواظبين على نظام حِمْيَة(*) هذه الأيام أم ماذا ؟!

(*) الحِمْيَة : الإقلال من الطعام ونحوه مما يضر .

ابتسمتُ قائلة :

ـ نوعًا ما !

قالت (هند) وفمها مملوء بالأرز والملوخية :

ـ دلينى عليه إذن ، أشعر أن وزنى قد زاد كثيرًا هذه الأيام ..

هذه الأيام فقط ؟!

ـ سأفعل ، كل عام وأنت بخير يا عزيزتى ..

ثم أشرت نحو غرفة الصالون ..

ـ .. هديتك فى غرفة الصالون ، أستطيع الآن أن أستأذن بالانصراف ..

سألتنى (هند) :

ـ أن تنتظرى حتى حفل عيد ميلادى فى المساء ؟!

أجبتها وأنا أتراجع نحو باب الشقة :

ـ لن أستطيع الحضور بهذا الشكل ، ثم إنى تذكرت أعمالاً مهمة ورائى فى المساء ..

سألتنى العمة (وفاء) :

ـ أن تغسلى يديك على الأقل ؟!

أجبتها وأنا أمسك بمقبض باب الشقة :

ـ لم ألوثها ، أشكرك ..

وسألتنى (هشام) الذى خيبت ظنه للمرة العاشرة خلال فترة قياسية :

ـ أن تنتظرى حتى أقوم بتوصيلك ؟!

وأجبته وأنا أفتح باب الشقة :

ـ أكمل طعامك بالهناء والشفاء ، سأستقل سيارة أجرة .. إلى اللقاء ..

ثم أغلقت الباب خلفى وعدوت فوق السلم إلى الأسفل ، وأنا أسمع صوت والدة (هشام) تحدثه فى رأسى :

ـ ألم تكن (ماهيتاب) ابنة أخى أفضل منها ألف مرة ؟!

وهو لا يستطيع ردًا ..

ولا أنا حتى !

* * *

عدت إلى منزلى الهادئ أخيرًا ، وأخذت دشًا حقيقيًا ، وارتديت ملابسى المنزلية مكومة ملابس (هند) فى ركن واضح من الحمام حتى لا أنسى إرسالها إلى التنظيف الجاف ، قبل أن أعيدها إليها مرة أخرى كفتاة تفهم فى الذوق ..

أبى لا صوت له ، هو نائم بالتأكيد ، كلا ليس فى عمله فهو ما زال مصابًا من المغامرة الماضية ، والطبيب المعالج قد نصحه بالراحة المنزلية التامة لو تذكرون ..

لم أرد تعكير مزاجه برؤيتى فى هذا الحال ، فاتخذت جلستى فى شرفة غرفتى التى تطل على أرض فضاء يستعملونها كمقلب للقمامة ، ورغم أن المنظر لم يكن جميلاً أو صحيًا إلا أننى اصطحبت فنجان النسكافيه وصوت (عبد الحليم) معى ، لأندمج فى عالم آخر بعيد عن كل ما ألاقيه منذ الأمس ، كأن سوء الحظ قد نزل على بابى ضيفًا ثقيلاً لا يريد أن يبرحنى ..

يا لها من حياة قاسية ، حياتى !

سرحت فى خواطرى السوداء ، حتى أيقظنى صوت بعيد ..

كان (عبد الحليم) من المسجل بجوارى كان يشدو بـ (ضى القناديل) ، بينما صوته الآتى من بعيد كان يشدو بأغنية أخرى ، إنها (أنا لك على طول) ..

الصوت البعيد المشوش قليلاً أعرفه ، وأعرف مصدره ..

إنه هاتف أبى المحمول ، أنا التى أدخلت عليه هذه النغمة بصوت (عبد الحليم) ، هو يغط فى النوم لا ريب ـ أبى لا (عبد الحليم) ـ ولا يسمع صوت هاتفه ..

نهضت واتجهت إلى مصدر الصوت ـ غرفته ـ دفعت بابها الموارب برفق ودخلت ، ولدهشتى لم يكن أبى نائمًا على السرير حيث توقعت أن أجده ..

هاتفه المحمول على الخوان بجوار السرير ينطلق بصوت (عبد الحليم) :

ابعت لى سلام .. قول أى كلام ..

من قلبك أو من ورا قلبك ..

بينما السرير مرتب والغطاء مفرود فوقه ، حتى العكاز الذى يستخدمه أبى فى التنقلات هذه الأيام غير موجود !

أمسكت بالهاتف مقطبة وحدقت فى الرقم المرتسم على شاشته ، إنه رقم مستشفى أبى ..

ضغطت زر قبول المكالمة على الفور مرجئة تساؤلاتى المتوترة قليلاً :

ـ آلو ..

ـ (نسرين) ، الحمد لله أنك عدت إلى المنزل مبكرًا ..

إنه أبى نفسه ، ما هذا الهرج ؟!

ـ أبى ؟! أين أنت ؟!

- فى المستشفى ..

بتوتر عارم سألته :

- ما الذى جعلك تذهب إلى المستشفى ؟! هل أصابك مكروه ؟!

- كلا ، اتصلوا بى هنا وكانوا يحتاجون إلىّ فى بعض الاستشارات العاجلة ، فارتديت ملابسى وجعلتهم يرسلون إلىّ بسيارة واثنين من الممرضين ، أنا بخير ، لا تقلقى لكنى نسيت هاتفى المحمول كما ترين !

تنهدت فى راحة ، وقلت فى مداعبة ممزوجة باللوم :

- يا لك من مريض مشاغب ، ألم يأمرك الطبيب بعدم مبارحة المنزل مدة أسبوعين على الأقل ؟!

ضحك قائلاً :

- هل نسيتى أن هذا الطبيب كان أحد تلاميذى ؟!

- هذا ليس عذرًا لتضرب بكلامه عرض الحائط ..

- لن أمكث فى العمل أكثر من ساعتين ، فقط أريد منك معروفًا ..

- مرنى ..

- أن تحضرى لى هاتفى إلى هنا ، فأنا أنتظر مكالمة مهمة ..

- سأفعل ، نصف ساعة على الأكثر وأكون عندك ..

- بالمناسبة ، لماذا تركتِ (هشام) مبكرًا ؟! ألم يكن من المفترض أن تتناولى الغداء عندهم ثم تمكثين هناك حتى المساء ؟! كنت سأتصل بك على هاتفه لكنى فكرت أن أجرب على هاتفى أولاً ، وبالمناسبة هاتفك المحمول خارج نطاق الخدمة ..

فعلاً ، أنا التى أغلقته منذ الصباح حتى لا يزعج أحد مزاجى المتعكر أصلا !

- سأروى لك كل شىء عندما آتى ، إلى اللقاء الآن ..

أخذت الهاتف إلى غرفتى ، وشرعت فى تبديل ملابسى وتسريح شعرى ، وتنظيف زجاج نظارتى ، عندما رن الهاتف مرة أخرى ..

المكالمة خاصة بأبى بالتأكيد ، والتهذيب يقتضى بألا أرد عليها ، سأحول الهاتف إلى النظام الصامت فور انتهاء الرنة الطويلة ، التى لمحت رقمها على الشاشة من نظرة خاطفة ..

ومن النظرة الخاطفة نفسها استطعت التعرف عليه ..

إنه رقم أحفظه عن ظهر قلب ..

رقم الهاتف المحمول الشخصى الخاص بالسيدة (ألفت هملم) ، رئيسة التحرير !

وانفجر نبع الأسئلة لا يروى عطشًا ..

السيدة (ألفت همام) تهاتف أبى على هاتفه المحمول ، أبى ينتظر مكالمة مهمة ، يتصل خصيصًا لكى أتى له بهاتفه ، ترى ما الذى يحدث ؟!

لم أستطع المقاومة أو الصمود ، ووجدت نفسى أضغط زر قبول المكالمة على الفور ..

ولم أنبس ببنت شفة طبعًا ..

- آلو .. (فاروق) ؟!

صوتها ، أعرفه ..

وتحادث أبى دون ألقاب ..!!

- .. اتصلت بك كثيرًا منذ الصباح ، وأنت لا ترد ..

بالفعل هناك أكثر من خمسة عشر مكالمة لم يتم الرد عليها كما هو مبين على الشاشة ، لم أتخيل ولو للحظة أنها هى من قام بها ..

صوتها يشى بالوجود فى مكان مزدحم ، فى الغالب تقود سيارتها فى شارع ما ..

وأنا صامتة ، قلبى ينتفض مذبوحًا فى قفص الضلوع ..

- .. كيف حالك ، هل ما زلت غاضبًا منى .. يا حبيبى ؟!

ماس كهربى يحرقنى ، أسود تلتهمنى ، مقصلة تهبط فوق رأسى ، سهام مسمومة تخترق جسدى ، وعشر رصاصات فى القلب لا أقل ..

(حبيبى) ؟!

السيدة (ألفت) والدكتور (فاروق) ؟! .. أبى ؟!

- .. أعرفك عندما تغضب ، لكنى أعرف كيف أصالحك ..

أنفاس وخفقان ..

- .. سأحضر إليك الآن بنفسى ، لا تغادر المستشفى حتى آتى إليك ..

خفقان وأنفاس ..

- .. إلى اللقاء ..

ثم ذهول ..

ذهول رهيب !

* * *

ـ بعد أن سيطرت على اندهاشي وجدته قد هدم نفسه مجدداً ، وتناول مجلته الفضائية المصورة من على سطح مكتبي ، ثم غادر الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة ..

ثم إنه نظر إلى الطبق الذي أمامي معقبًا :

ـ .. إنك لم تتناولي طعامك يا صغيرتي !

لم أسمع ما قاله تقريبًا ، فقد كنت أجهز السؤال التالي في دماغي :

ـ وما سر هذا الوشم على صدره يا أبي ؟!

ـ يحتمل الأمر الكثير من التفاسير !

ثم وهو يمر بقطعة من الخلال بين أسنانه أدلى بالتفاسير المحتملة :

ـ .. هذا الوشم بفعل فاعل ، ربما يكون أهله قد وشموه به وهو صغير ، وربما يكون قد وشم به نفسه ، وربما فعلها به أحدهم وفقًا لمعتقدات ما ، لكني أستبعد النظرية الفضائية التي أراد ترسيخها في ذهني إن كان هذا هو مقصدك .. في الغالب هذا الفتى مصاب بنوع من الاضطراب

النفسي أو العقلي الذي يتضمن ضلالات أقنع بها نفسه ، هذه الضلالات الخاصة بسكان الفضاء قليلة الانتشار في مجتمعاتنا بعكس المجتمعات الغربية التي ينتشر فيها هذا الأمر بكثرة نظرًا لاختلافات ثقافية بيننا وبينهم ، لكن هذا ليس معناه أنه غير وارد حدوثه لدينا ، وهذا الفتى الريفي الذي درس الطب وانفتح على هذه الثقافة خير نموذج لهذا !

تفسير أنيق يليق بالدكتور (فاروق الجبالي) حقًا ، لكن مرجعيتي مختلفة ، ولا يوجد وقت لشرحها لك الآن يا أبي ..

معذرة ، ليس قبل أن أتأكد !

ـ سؤال آخر يا أبي ..

ـ تفضلي يا حضرة الصحفية اللامعة ..

ـ هل تعرف إلى أي قرية بالتحديد ينتمي هذا الفتى ؟!

ـ كان هذا مدونًا في سيرته الذاتية كما قلت لك ، محل

الميلاد الخاص به يقع فى قرية تبدأ بـ (ميت) .. لكنى لا أذكر الباقى !

ترددت للحظة لكنى ألقيتها والسلام :

ـ (ميت خميس) ؟!

أشرق الوجه الضحوك :

ـ تمامًا ، هذا هو اسمها .. كيف عرفت هذا يافتاة ؟!

تبسمت قائلة وأنا أخفى خلف ملامحى براكين من الانفعالات :

ـ للصدفة قوانينها العجيبة يا أبى ، سأروى لك كل شىء لاحقًا ..

ولكى تؤمن الصدفة على قولى ، فقد رن جرس هاتف المنزل لحظتها بالتحديد ، فهرولت نحوه حتى إننى كدت أقع على وجهى ، بينما شيعنى أبى بنظرات غير فاهمة ..

ـ آلو ..

إن كان المجيب هو السيد (س) فذلك ليس مدهشًا ، المدهش حقًا أنه لم يكن هو :

ـ (نسرين) .. كيف حالك ؟!

هذا صوت (رحاب) صديقتى التى تخرجت من الكلية إلى كون من الفراغ والعدم ، لكن صوتها لا يحمل رنة الكسل والتراخى المعتادة ..

ـ (رحاب) .. أنا بخير .. كيف حالك أنت ؟!

أجابتى بكلمة واحدة لتؤمن على قولى :

ـ خائفة !

انعقد حاجبىّ :

ـ مم ؟!

ـ هل تستطيعين الحضور إلىّ ؟!

نظرت إلى أبى الذى لاح ظله وهو يغسل يديه فى الحمام ، ليست لقاءاتى معه كثيرة لذا يعز على تركه ..

ـ .. وهذا راتب الشهر الماضى ..

وضعتُ المظروف المنتفخ على المكتب أمامها ، وأنا أتابع :

ـ .. أشعر بأنى لا أستحقه أبدًا ..

لا أطمح إلى تسجيل مواقف بطولية ، لكن ..

هكذا أفضل للجميع وكفى !

ـ ماذا دهاكِ يا فتاة ؟! بالأمس تشاجرتِ مع الصراف من أجل الحصول على حقك كاملاً ..

هززت كتفى مجددًا ، ثم أتبعت هذا قائلة ببساطة وعمق :

ـ واليوم أتنازل عن حقى هذا ، لأنه ليس حقى ..

حاولت السيدة (ألفت) أن تجرجرنى إلى المنطقة المحرمة :

ـ (نسرين) .. إننى لا أعاملك كمرؤوسة عندى ، بل كابنة لى .. اعتبرينى أمك وصارحينى إن كان هناك ما يضايقك ، ربما أستطيع المساعدة ..

لكنها وبكل أسف ، منطقة محرمة :

ـ أمى ماتت منذ سنين بعيدة يا سيدتى !

قلتها وأنا أحدجها بنظرات حارقة ، فهزّت رأسها فى تَفَهُّم ، وغمغمت وهى تعض شفتيها :

ـ هكذا إذن ..

لو أن (عباس محمود العقاد) بنفسه ترك الوظيفة لديها لما تحسّرت عليه السيدة (ألفت) علانية بهذا الشكل ، لكن الأمر يتجاوز الوظيفة والعمل إلى منطقة شخصية بحتة ..

منطقة محرمة بكل أسف ..

ـ أستأذنك يا سيدتى ..

قلتها وأنا أهم بالمغادرة ، لكنها استوقفتنى بسؤالها :

ـ ماذا عن تحقيقاتك ؟!

استدرت نحوها ببسمة متهكمة ، ففسرت سؤالها :

ـ .. هل ستواظبين على نشرها عندنا ؟!

قلت وبسمتى المتهكمة تتسع ، تهكم منها ومن نفسى ومن العالم بأسره :

ـ لندع تحديد هذا للزمن وحده ..

واستدرت نحو الباب المغلق ، مضيفة :

ـ .. يا سيدتى !

★ ★ ★

مرت أيام حتى اجتمعت بالبنات فى (بينوز) ، لقاؤنا الأسبوعى الذى لا نخلف له موعدًا متى أمكننا ذلك ..

(شيماء رويتر) تدافع عن لقبها الذى اكتسبته ، وتنقل لنا فى اجتهاد دعوب أخبار كل من نعرفهم ولا نعرفهم وهى تتناول الكعك الإنجليزى فى نهم ، (مروة) المحجبة فى أناقة منهمكة فى قراءة العدد الجديد من جريدة (آراء) ، تشاركنا بالكلام قليلاً وبالصمت والاستماع غالبًا ، و(رحاب) محايدة ، فالحياد طابعها الأبدى ، لو جلست بجوارها طوال العمر لما استطعت العثور على شىء مميز فى شخصيتها أو ملابسها أو حتى أسلوبها فى الكلام ..

وأنا بلا فخر أتصدر المائدة بروح الزعامة الكاريزمية التى لم تزل عنى بعد ..

ـ هل تردن سماع خبر الموسم ؟!

قالتها (شيماء) وهى تشير للنادل بإحضار قطعة أخرى من الكعك ، فمطت (رحاب) شفتيها قائلة :

ـ كل هذه الأخبار التى تلقينها على مسامعنا منذ أكثر من ساعة ، وخبر الموسم لم يأت بعد ؟!

ابتسمت (شيماء) وقالت :

ـ الثقيل دائمًا فى الوراء ..

ثم إنها مالت علينا هامسة ، بصوت جهورى يمكن أن تسمعه نملة فى (حلايب وشلاتين) :

ـ .. واحدة تعرفونها من زميلاتنا ، والدها يستعد للزواج بعد قصة حب عنيفة !

أزعجنى الخبر فسألت كصاعقة :

ـ من ؟!

ـ لا أستطيع الإفصاح عن هويتها ..

قلتها (شيماء) متلذذة بغوضها اللعين ، ثم إنها استطردت :

ـ .. إن والدتها متوفية منذ زمن طويل ، ووالدها كان يعيش قصة حب سرية مع صديقة والدتها دون أن تعرف المسكينة شيئًا طوال السنين الماضية !

هل تعنينى (شيماء رويتر) بهذا ؟!

هل عرفت قصة والدى و(ألفت) ؟!

كيف ؟!

وممن ؟!

و ...

هتفت (رحاب) فى تعاطف :

ـ يا لها من مخدوعة ، وكيف تصرفت مع الأمر ؟!

هزت (شيماء) كتفيها ، وقالت فى استهانة :

ـ تحاول التعايش مع الأمر الواقع ، لكنها تجربة خاصة جدًا لو أردتن رأيى ، فلو فعلها أبى بعد وفاة أمى أطال الله عمرها لن أسكت أبدًا ..

سألتها ووجنتى تتضرجان بالحمرة :

ـ ماذا يمكن أن تفعلى ؟!

عادت تهز كتفيها وتقول فى استهانة :

ـ لا أدرى ، سوف أفكر فى الأمر لحظتها ، لكنى لن أقف صامتة مثل (وسام) أبدًا ..

زلة لسانها جعلتنى أتنهد مستريحة فى أعماقى ، إنها لا تعنينى على الأقل ، رغم أن القصتين يبلغ بها التشابه حد التطابق ..

ـ ما رأيك أنت يا (مروة) ؟!

سألتها (رحاب) ، فنحّت (مروة) الجريدة جانبًا لأتبين ما تقرأه ، وقالت :

ـ تعلمن أننى لا أحب التحدث عن أحد فى غير وجوده على الإطلاق ..

أشاحت (شيماء) عنها بيدها قائلة فى ازدراء :

ـ أجل .. أجل .. الآنسة (مثالية) لا تغتاب أحدًا ، دائمًا تحاولين إشعارنا بأنك أفضل منا ..

لم تلق (مروة) اهتمامًا لما قالته (شيماء) وكادت تعود لقراءة الجريدة ، غير أن (رحاب) استوقفتها بقولها :

ـ أتحدث عن رأيك فى القضية عمومًا ، لا عن (وسام) خصوصًا ..

هتفت (شيماء) فى دهشة :

ـ كيف عرفتِ أننى أتحدث عن (وسام) ؟!

ليس ذكاء من (رحاب) بالطبع !

قالت (مروة) فى هدوئها الذى يليق بسيدة من الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية القديمة ، Lady لو كانت الترجمة الطويلة لم تحمل معنى الكلمة :

ـ من حقه أن يفعل ما يشاء ، إنها حياته وهو حر فى اتخاذ قراراته بنفسه ، ويجب على ابنته أن تكون أقل أنانية وأن تفكر فى منظوره هو .. هذا هو رأيى فى القضية عمومًا ..

المشكلة يا (مروة) أنك محقة كعهدى بك ، وما تقولينه هو بالتحديد ما أحاول تطبيقه على النسخة الخاصة بى من القصة ، لكنى لا أدعى النجاح كما لا أصر على الفشل ..

سأحاول أن أتناسى آلامى الشخصية مؤقتًا وأحول دفة الحوار إلى قناة أخرى :

- هل تقرئين مقال (هلال رضا) ؟!

سألتْ (مروة) وأنا أنظر فى الصفحة التى تقرأ فيها من الجريدة حيث تبرز صورته واضحة باسمًا فى وقار ، فأجابتنى مومئة برأسها أن :

- نعم ، أعشق مقالات هذا الرجل ..

ابتسمت وأنا أخبرها :

- لقد قابلته منذ أيام قليلة ..

مالت (رحاب) نحوى وسألتنى :

- حقًا ؟! أين ؟!

- فى مقر الجريدة ..

قالت (مروة) :

- إنه جاد فى محاربته للفساد ، ويكشف الكثير من الوقائع بالمستندات والأرقام .. أشخاص قليلون مثل هذا الرجل يمنحوننا الأمل فى أن ينصلح حال البلد ولو قليلاً ..

قالت (شيماء) وفمها لا يتوقف عن المضغ والبلع :

- (آراء) من الصحف المستقلة القوية فى صحافة اليوم الزاخرة بعشرات الصحف الصفراء عديمة القيمة ..

ابتسمت (رحاب) قائلة فى مجاملة ظريفة :

- لكنها لا ترقى لمستوى (الأربعاء) ، حيث تنشر تحقيقات السيد (س) ..

بادلتها البسمة بأخرى لا معنى لها ، وسألت (شيماء) :

- ما من تحقيقات أخرى قريبًا معه على صفحات الجريدة ؟!

- كلا ..

أجبت وأنا أجاهد لنسيان كل شىء ، وأحاول ألا أندفع لحكاية موقفى من التحقيقات والجريدة ورئيسة تحريرها ..

- ألا تعيشين معه مغامرة أخرى هذه الأيام ؟!

سألتنى (رحاب) ، فأجبت فى اقتضاب :

- كلا ..

ـ إننى لا أشترى عدد الجريدة إلا لقراءة ما تكتبينه فيها ..

قالتها (شيماء) ، ثم إنها أردفت ملوحة بثلاثة من أصابعها المكتنزة :

ـ .. وأعرف ثلاثة من صديقاتى على الأقل يفعلن نفس الشىء ..

ـ لن تشتريها إذن مرة أخرى ..

أفلت منى لسانى اللعين بقولها لا إراديًا ، فالتقت فوق وجهى عيون الثلاثة ، وسألتنى (مروة) مقطبة دون أن تفقد لهجتها اتزانها :

ـ ماذا تعنين ؟!

لا مفر من إعلانها صريحة إذن :

ـ لقد تركت الجريدة ، واتخذت قرارًا بألا أنشر فيها أى تحقيقات أخرى ..

المشكلة أن (مروة) هى التى سألتنى :

ـ لماذا ؟!

.. لذا لم أجد مهربًا من البحث عن أى إجابة :

ـ خلافات فى نطاق العمل ، لا أكثر ..

كذب أبيض لن يضر أحدًا ..

ـ هم الخاسرون صدقينى ..

قالتها (شيماء) ..

ـ وهل معنى هذا أننا لن نقرأ مزيدًا من تحقيقاتك مع السيد (س) ؟!

سألت (رحاب) ، فأجبتها :

ـ لا أدرى .. حتى الآن لا مغامرات جديد ، ولم أفكر كنت سأنشر فى مكان آخر أم لا ..

هتفت (شيماء) فى حماسة :

ـ أى صحيفة سوف تتمنى أن تنشر تحقيقاتك مع إشارة محترمة لها فى الصفحة الأولى ..

وهزت (مروة) رأسها مشيرة إلى نسخة الجريدة فى يدها :

ـ صحيح ، حتى لو كانت صحيفة بحجم (آراء) مثلاً ..

قالت (رحاب) وقد انتقلت إليها عدوى الحماس عبر الهواء :

ـ ألا تقولين أنك تعرفين (هلال رضا) ؟! لماذا لا تذهبين لمقابلته ؟!

كدت أخبرهن أنه بالفعل حل مثالى ، وأن الأستاذ (هلال) بنفسه قد طلب منى هذا ..

(.. لو أردت توسيع نطاق تعاملاتك الصحافية لتشمل جريدتى فسأكون من أشد المرحبين بك ..)

قالها لى ، وقلت لهم :

ـ سأفكر ، وربما أذهب لمقابلته قريبًا ..

ارتسمت البسمات على وجوه صديقاتى ، وانتقلت من شفاههن إلى شفتى ، وعبر صفحة الجريدة الماثلة بين يدى (مروة) رأيت صورة (هلال رضا) تبتسم لى بدورها ..

عرفت لحظتها أن ترددى طوال الأيام الماضية قد حُسم ..

سأذهب لمقابلة (هلال رضا) وأطلب منه العمل فى جريدته ..

متى ؟! لا أعلم ..

كل ما أعلمه أننى سأقابله ..

(.. ثقى من هذا يا فتاة ..) !

★ ★ ★

مرت أيام أخرى قبل أن أحسم أمرى وأذهب إلى مقر جريدة (آراء) ..

طوال هذه الأيام كان تعاملى مع والدى العزيز رماديًا ، لا يقوى هو على رفع وجهه فى وجهى بعد أن استنتج معرفتى الجزئية لقصته مع (ألفت) عبر الهاتف المحمول ، وبدورى لم أفتح معه أى موضوعات ، واكتفيت بالأحاديث المقتضبة التى نتبادلها بحكم تواجدنا فى شقة واحدة ..

لم نعد نمزح كالسابق ، ولم تجمعنا مائدة الطعام إلا لمامًا ، وانعزل كل منا فى شرنقته الخاصة ..

بالتدريج بدأ أبى يزيد من أوقات تواجده فى المستشفى ، ولدهشتى لم أطلب منه ألا يفعل ..

كل هذا الغضب !

اليوم أخذت سيارة أجرة إلى مقر جريدة (آراء) بشارع (القصر العينى) ، فحتى سيارة أبى الرابضة دائمًا أسفل البناية عافت نفسى ركوبها ، لم أحمل معى فى ذهابى إلا عقلى ، لا أعمال سابقة ولا نموذج منمق لسيرة ذاتية ولا حتى تأنُّق شكلى زائد عن الحد ..

لم أفعلها من قبل ولن أفعلها من بعد ، من يرد الحكم علىّ فليحكم على عقلى فقط ..

عقلى فقط ..

مصعد البناية كان معطلاً ، وهكذا أخذت طريق السلالم الصاعدة فقط كى ألتقى به ..

الكرش الكبير ، الجبهة العريضة والرأس نصف الأصلع ، الشعر الغزير فى الأذنين وعبر القميص المفتوح من الصدر ، الحقيبة السوداء على الكتف الحاوية لعدة الحلاقة .. أقصد الصحافة ، ورائحة العرق الكريهة ..

(حسين مرشدى) :

ـ رئيسة القسم السابقة فى جريدة (الأربعاء) .. مرحى مرحى ..

آخر من أتمنى رؤيته فى أى مكان وأى زمان ..

ـ .. سمعت بالنبأ الحزين يومها ، وفى اليوم التالى عدت إلى الجريدة بملف آخر من التحقيقات ، هناك ثلاثة منها سيتم نشرها فى عدد الغد ..

ـ مبروك ..

قلتها فى استسخاف جلىّ ، فمال نحوى هامسًا لتملأ الرائحة الكريهة كل مسامى :

ـ لا أظن أنهم سيعطونك مركزًا كبيرًا فى (آراء) أيضًا ،

فحسبما أعرف أنه لا توجد علاقة خاصة بين أى من القائمين على الجريدة وبين والدك ..

وأطلق ضحكة جهنمية ، ثم تركنى وأكمل طريقه هابطًا ..

كم أتمنى أن أراه هابطًا فى قعر الجحيم ..

المشكلة أنه يشعرنى بمدى حماقتى ، ويأجج فى أعماقى إحساسى بأنى كنت مغفلة كبيرة ، آخر من يعلم بينما كل من حولى يتهامسون !

ضممت قبضتى وسيطرت على مشاعرى بصعوبة ، كأنى أروض وحوشًا برية ، وأكملت طريقى الصاعد إلى مقر الجريدة ..

عند مكتب الاستقبال وقفت ، وتحدثت إلى الشاب الجالس خلف جهاز التليفون ..

ـ أريد مقابلة الأستاذ (هلال) من فضلك ..

نظر الشاب نحوى نظرة لم أفهمها ، وقال فى اختصار :

ـ غير موجود ..

سألته :

ـ ومتى يكون موجودًا ؟!

تنهد الشاب تنهيدة لم أفهمها ، ثم قال :

ـ لم يأت إلى مقر الجريدة منذ أربعة أيام ..

عدت أسأله فى إلحاح :

ـ لماذا ؟! هل هو مسافر ؟! هل هو معتكف فى منزله ؟! هل هو فى مهمة ...

قال الشاب لأفهم أخيرًا نظرته وتنهيدته :

ـ إنه مختف ، منذ أربعة أيام لم يعد إلى منزله ، ولم يأت إلى هنا ولم يره أحد فى أى مكان ..

ـ مختف ؟! ما معنى هذا ؟!

سألته وحاجباى ينعقدان ، أحتاج برهة من الوقت لاستيعاب الموقف فحسب ..

ـ منذ نزل عدد الجريدة الأخير إلى الأسواق لم ير أحد الأستاذ (هلال) فى أى مكان ، هاتفه المحمول مغلق ، هاتف المنزل لا يرد ، لا أحد يفتح باب المنزل مع الطرقات ، ولأنه يعيش وحده بلا زوجة أو أبناء ، فقد حاولنا الاتصال بأهله فى (المنصورة) لكن أحدًا هناك لم يعرف له طريقًا أيضًا ، حتى أننا اضطررنا لإبلاغ الشرطة أمس لتباشر التحقيق فى الأمر ..

شهقت ودهشتى تبلغ أوجها :

ـ إلى هذا الحد ؟!

عض الشاب شفته السفلى بأسنانه ثم غمغم فى حزن :

ـ جميعنا هنا فى الجريدة نضع أيدينا على قلوبنا خشية أن يكون مكروهًا قد أصابه ، ليس خوفًا على أرزاقنا وبيوتنا المفتوحة من وراء جريدته فحسب ، وإنما خوفًا عليه كإنسان من معدن نادر ، له من الفضائل على الجميع ما لا يمكن إحصاؤه ..

إنها قضية صحفية من الطراز الأول على ما يبدو ..

ـ وهل أسفرت تحقيقات الشرطة عن شىء ؟!

قال الفتى آسفًا وهو يهزّ رأسه بالنفى :

ـ ليس بعد ، لقد حضروا إلى هنا منذ قليل ، وجمعوا منا بعض الأقوال التى لا تدل على شىء ، يترأسهم نقيب من المباحث الجنائية اسمه (هشام القاضى) !

هتفت وقد ارتفع حاجباى :

ـ (هشام) ؟!

سألنى الشاب :

ـ هل تعرفينه ؟!

لكنى لم أكن أمامه حتى أجيبه ..

لقد انطلقت ركضًا أغادر المكتب ، وأقفز درجات البناية اثنتين اثنتين ..

أوقفت سيارة أخرى على الفور ، وعلى الفور أيضًا طلبت من سائقها التوجه إلى مبنى المباحث الجنائية ..

* * *

ـ هذا كثير حقًا .. مرتين فى يوم واحد ؟! إنه يوم سعدى بالتأكيد ..

(حسين مرشدى) من جديد ؟!

وأين ؟!

هنا فى مدخل مبنى المباحث الجنائية ؟!

لم أتمالك نفسى وسألته فى عصبية :

ـ ماذا تفعل هنا ؟!

ضحك ـ وهو حقه فالمبنى ليس ملكًا لعائلتى ـ وقال :

ـ كأنك تسألين الشمس عما تفعله فى السماء !

ضربت الأرض بقدمى وتركته داخلة إلى حيث أقصد ، بينما تابعنى هتافه من خلفى :

ـ .. هل قبضوا على السيد (س) هنا أم ماذا ؟!

ظريف ..

ظريف جدًا !

* * *

ـ اهدئى قليلاً يا عزيزتى حتى أستطيع فهم ما تقولينه على الأقل ..

قالها (هشام) من خلف مكتبه ردًا على صياحى فيه ، فانتبهت إلى أن كلماتى قد امتطى بعضها بعضًا بالفعل ، وهكذا هدأت قليلاً لأجلس أمامه قائلة وأنا أهث ككلب ـ بالأحرى كلبة ـ :

ـ أقول .. لك .. كيف .. لا .. تخبرنى أنك .. المسئول .. عن التحقيق .. فى قضية .. اختفاء .. الأستاذ .. (هلال رضا) .. الغامض ؟!

مال (هشام) نحوى سائلاً :

ـ وهل يفترض بى أن أخبرك عن جميع القضايا التى أتولى مسئولية التحقيق فيها ؟!

الإجابة (كلا) والرد مفحم ..

ـ حسنًا ..

قلتها واضعة ساقًا فوق أخرى ، ثم أتبعت :

ـ .. أريد أن أعرف التفاصيل ..

لم يراوغنى ككل مرة ، ربما لموقفه السيئ سابقًا معى ، والذى يطمح إلى إصلاحه بأى وسيلة ، فاستطرد رأسًا :

ـ لا نملك الكثير منها بكل أسف .. يوم صدور الجريدة مساء كان الأستاذ (هلال) فى منزله حسبما شهد بواب البناية التى يسكن فيها ، وفى الساعة التاسعة جاءت سيارة مرسيدس خضراء موديل ١٩٨٤ وتوقفت لأخذه إلى حيث لا يعلم أحد سواه ، شبهة الخطف غير واردة لأنه ركب السيارة راضيًا ، ومن يومها لم يعد الأستاذ (هلال) إلى المنزل وانقطعت أخباره تمامًا ، لم يتصل بأحد عبر هاتف المنزل طوال اليوم ، والأرقام فى الأيام السابقة ليس بها ما يثير الشك ، أرقام رقم هاتفه المحمول الذى اختفى معه أيضًا لم تدلنا على شىء ، هناك رقم واحد غريب فى قائمة المكالمات الواردة ، بالكشف عنه تبين أنه يخص خطًا سرق من صاحبه يومها مساء ، لكن الغريب حقًا هو ما دار فى شقته بعدها ..

سألته فى لهفة :

ـ ماذا ؟!

وأجابنى دون مراوغة :

ـ عندما فتحنا باب منزله عنوة اليوم صباحًا ، وجدنا المنزل مقلوبًا رأسًا على عقب ، يبدو أن أحدهم قد اقتحمه دون عنف أو ترك بصمات ، وقام بسرقة الخزنة الخاصة ذات الأرقام السرية التى كانت موجودة فى غرفة المكتب ، لقد تم حملها حملاً ولا تزال آثار الغبار موجودة فوق الطاولة الخاصة بها ، المشكلة أننا لا نعرف متى حدث ذلك بالتحديد على مدى الأيام الأربعة السابقة ..

قلت وأنا أفكر :

ـ هذا يفسر الكثير ..

هزّ كتفيه :

ـ كان هذا تعليق الصحفى الذى حضر قبل قليل ليسألنى عن القضية أيضًا ..

مقطبة سألته :

ـ صحفى ؟! من ؟!

هزّ كتفيه :

ـ لا أذكر اسمه ..

ـ (حسين مرشدى) ؟!

هزّ كتفيه :

ـ تقريبًا ..

إنه يبحث عن سر اختفاء (هلال رضا) إذن ، لذا فقد كان متواجدًا فى الجريدة ثم هنا ثم ...

ـ .. لكن يمكننى أن أخصك بنقطة لم أذكرها له ..

قالها (هشام) باسمًا ، فسألته فى عجلة :

ـ أى نقطة هذه ؟!

اتسعت بسمته :

ـ البصمة !

ـ بصمة ؟!

ـ أجل ، بصمة صغيرة جدًا ، ثلاثة أرباع بصمة لو أردنا الدقة ، كانت موجودة على الحافة السفلية للثلاجة فى شقة (هلال) ، إنها

البصمة الوحيدة المختلفة عن بصمات الأستاذ (هلال) المتناثرة فى جميع أنحاء الشقة ، وهى الدليل الوحيد الذى فى حوزتنا حتى الآن ، هل أخبرتك أنه يعيش وحيدًا بلا زوجة أو أبناء ؟!

صمتّ شاردة بعينى فى المجهول ، وفى رأسى سؤالين لا ثالث لهما ..

السؤال الأول : ماذا حدث ؟!

السؤال الثانى : ترى ، ما الذى سيحدث ؟!

★ ★ ★

٤ ـ رجل آخر ..

يبدو اليوم مناسبًا للتحرك بسرعة ، ولكن بنظام ..

استطعت بصعوبة الحصول على نسخة أخيرة مهترئة من العدد الماضى من جريدة (آراء) ، وبمبلغ باهظ عندما لاحظ بائع الصحف الانتهازى لهفتى للحصول على نسخة بأى ثمن ، وبينما سيارة الأجرة تحملنى إلى عنوان سكن الأستاذ (هلال رضا) فى (الدقى) ؛ عنوانه الذى أخذته من (هشام) بعد أن أصبح مطيعًا أكثر من اللازم فجأة ، أخذت أقلب صفحاتها فى نهم متسرع ..

هذا هو المقال الأخير للأستاذ (هلال) قبل اختفائه ، المقال الذى كان أمامى عندما كانت تقرؤه (مروة) فى (بينوز) منذ أيام ، ولم ألق نظرة عليه وقتها لسوء الحظ ..

عنوان المقال أعلى صورة الأستاذ :

عائلة (البحراوى) تتحكم فى اقتصاد البلاد على طريقة الأب الروحى

ركضت عيناى فوق السطور ، وخفق قلبى بعنف وأنا ألفز من كلمة إلى أخرى ..

إن المقال يستعرض ـ بجرأة يحسد عليها كاتبه ـ وعلى مدى صفحة كاملة من قطع الجريدة واقعة فساد جديدة ومثيرة من بطولة عائلة (البحراوى) المذكورة ، أقوى العائلات اسمًا ونفوذًا وثراء فى عالم رجال الأعمال ..

يستعرض المقال فى البداية تاريخ العائلة ، منذ بداية صعودها فى فترة السبعينات من القرن العشرين ، تحت ظل ما عرفته مصر من سياسة انفتاح اقتصادى على العالم دون ضابط أو رابط ، مما أدى لظهور طبقة جديدة أطلقوا عليها وقتها (القطط السمان) ، التى أسمنتها التجارة فى كل شىء وأى شىء ، مع شبه غياب كامل لأجهزة الرقابة والملاحقة ، ربما لانخراطها هى الأخرى فى شبكة الفساد الواسعة التى شملت كل مناحى الحياة ، فأصبح المناخ العام طاردًا لكل مواطن طامح فى استنشاق هواء نظيف ..

هناك صورة واضحة وملونة لـ (عاصم البحراوى) ، الملياردير صاحب (البحراوى جروب) التى تستثمر أموالها الطائلة فى عشر قطاعات صناعية وتجارية على الأقل ، وهو ضابط جيش سابق متقاعد وعضو مجلس شعب حالى ومرشح للوزارة ، يتردد أنه واجهة يعمل من خلفها أصحاب نفوذ وثروات آخرين ، عيناه ثاقبتان وشعره الأبيض يمنح المشاهد شعورًا بالهيبة ..

والخوف ..

هناك صورة أخرى مجاورة لابنه رجل الأعمال الذى طفا فوق سطح الأخبار والشائعات منذ سنين قريبة (جلال البحراوى) ، هو نسخة مصغرة من أبيه بشعر أسود وتجاعيد أقل على الوجه وتحت العينين اللتين يشع منهما طموح لا حد له ، وبجوار الصورتين صورة ثالثة لأحد المسئولين المهمين فى وزارة قطاع الأعمال ، اقترن اسمه باسم العائلة منذ سنين عندما عمل مستشارًا اقتصاديًا لإحدى شركات مجموعة (البحراوى جروب) ..

يركز المقال فى مجمله على صفقة مشبوهة تمت لخصخصة إحدى شركات القطاع العام المهمة والتى كانت تربح بنسبة معقولة سنويًا ، لكن .. تم التلاعب فى الأرقام وتبديل الأوراق بحيث أصبحت الشركة خاسرة أمام أجهزة الدولة ، فاستوجب هذا بيعها فى ظل السياسات الجديدة ، وبيعت الشركة فعلاً بثمن بخس لـ (عاصم البحراوى) وابنه منذ عدة أشهر ، للدقة تم تقديمها لهما على طبق من ذهب ..

يسوق (هلال رضا) المستندات التوضيحية المثبتة لما يدعيه ، ويعد بتقديم المزيد من الفضائح والوقائع المدعومة

بمستندات فى مقالات قادمة ، ثم ينتهى المقال بتشبيه عائلة (البحراوى) بعائلة (كورليونى) فى رائعة (ماريو بوزو) و(فرانسيس فورد كوبولا) : ثلاثية (الأب الروحى) ، الثلاثية التى رسخت ثقافة عالمية باسم المافيا والجريمة العائلية المنظمة ..

اقتربت سيارة الأجرة من (الدقى) ، بينما رأسى يضج بزحام ساعة ذروة ..

السؤال الذى يطرح نفسه الآن أوضح من أن يقال :

هل يمكن أن تكون هناك علاقة ما بين هذا المقال بالتحديد واختفاء (هلال رضا) الغامض ؟!

لو كانت الإجابة نعم فهى كارثة محققة ، بل عدة كوارث فى الواقع ، على رأسها : من يستطيع الوقوف فى وجه عائلة (البحراوى) الجبارة ؟!

تناسيت الأسئلة مؤقتًا ، وهبطت من السيارة أمام العنوان المطلوب ، لتتسلل رائحة كريهة وتملأ أنفى ..

كلا ، هذا كثير ..

(حسين المرشدى) للمرة الثالثة على مدى يوم واحد ؟!

كان يشير بيده محييًا بواب العمارة ، وقد اختفت صلعته داخل خوذة حمراء ، واتخذ جلسته فوق مقعد دراجته البخارية الأثيرة التى تقله من مكان لآخر ، محاولاً أن يتقمص دور (نور الشريف) فى أول أعماله (محمد خان) : فيلم (ضربة شمس) ، لكن شتان ما بين الاثنين طبعًا ..

كيف عرفته والخوذة تغطى وجهه ؟!

سؤال غريب ، من رائحته طبعًا !

عندما رآنى (حسين) رفع يده محييًا من بعيد ، وغمزنى من خلف زجاج الخوذة ثم هتف :

ـ يبدو أننى أسبقك دائمًا !

لم أبادله الابتسام أو الحديث ، وضممت الجريدة إلى صدرى فى تحفز ، ثم مضيت إلى بواب البناية الواقف أمامه مباشرة ..

حاولت أن أتجاذب معه أطراف الحديث لكنه رفض دون مقابل ، عرضت عليه نقودًا فرفض لأنه لا يأخذ من الغرباء إلا سجائر ، ولمحت فى جيب جلبابه علبة (مارلبورو) أحمر لابد أن (حسين) هو الذى جلبها له قبل قليل ..

(حسين مرشدى) الذى انتحى بدراجته البخارية جانبًا من

الشارع ، ووقف يرمقنى بعينين ساخرتين ، عائدة من كشك السجائر المجاور للبناية وأنا أحمل ثلاث علب سجائر مرة واحدة ، ولمحت بطرف عينى اللعين وهو يلتقط لى صورة من باب خفة الدم ، لكنى قررت التجمل بالصبر وتجاوز الموقف ..

ـ تفضل يا عم (جابر) ..

أخذ العم (جابر) علب السجائر دون كلمة شكر ، ولم أكن أنتظرها منه على أى حال ..

ـ .. الآن أخبرنى من فضلك كل ما تعرفه عن حادث اختفاء الأستاذ (هلال) ..

أشار العم (جابر) إلى (حسين) الواقف عند نهاية الناصية ، قائلاً ليفجر عيون الغيظ الساخنة فى أعماقى :

ـ بدلاً من أن أعيد الحكاية كلها مرة أخرى اسألى الباشا هناك ، فقد رويت له كل شىء وهو صحفى مثلك ..

حاولت أن أسد ما تيسر من عيون الغيظ الساخنة فى أعماقى ، وأقول :

ـ دعك منه يا عم (جابر) ، ثم إنه أعطاك علبة سجائر واحدة فقط ، لا ثلاث ..

أكره أسلوب المساومة والمعايرة لكن البادى أظلم ، وهكذا تحدث العم (جابر) :

ـ ما أعرفه قلته كله للباشا فى التحقيق .. ليلتها هبط الأستاذ من شقته وكانت تنتظره سيارة كبيرة سبعة أمتار ، كان يرتدى بذلة فاخرة ويفوح منه عطره النفاذ ، ركب السيارة وذهب دون عودة ، لا أتذكر رقم السيارة ولم أشعر بأى أحد دخل الشقة من يومها ، هذا كل شىء !

ذهب ثمن العلب الثلاث هباء منثورًا إذن ، لكنى من المؤمنين بأن الإلحاح مفيد للصحة :

ـ حاول أن تتذكر يا عم (جابر) ، ألم تلمح أحدًا داخل السيارة ؟!

صاح مستهجنًا كأننى سببته :

ـ كيف ألمح أحدًا والزجاج غير شفاف يا ست ؟!

الإلحاح مفيد جدًا للصحة :

ـ لكن باب السيارة انفتح على الأقل ..

صاح ردًا على سبابى الذى لم أوجهه له :

ـ الدنيا كانت ليل ..

والصحة مفيدة جدًا للإلحاح أيضًا :

ـ حاول أن تتذكر ..

صمت الرجل طويلاً ، قبل أن يقول :

ـ كان داخلها رجل لا امرأة ..

ـ كيف عرفت ؟!

ـ أتذكر أنى لمحت حذاء رجاليًا للرجل الجالس على الأريكة الخلفية فى الداخل ..

بينما أسأل نفسى عما إذا كان يمكن أن تفيد معلومة كهذه ، وفى أى شىء ، رن هاتفى المحمول رنة استقبال رسالة قصيرة ، فأخرجته من جيب سترتى لأرى الرسالة بينما اختفى العم (جابر) من أمامى كأنه قد انتهز الفرصة ..

الرسالة دون رقم للمرسل ، وبضغط زر قراءتها ارتسمت على الشاشة الحروف التالية :

Nasser Abdul Rahman

من (ناصر عبد الرحمن) هذا ؟!

هدر صوت محرك دراجة بخارية خلفى ، ممتزجًا بهتاف كريه الرائحة :

ـ هل عثرت على شيء حتى الآن يا أبرع صحفيات العالم ؟!

التفتُ نحو (حسين مرشدى) ، ولم يكن أمامى سواه لأوجه السؤال :

ـ هل تعرف شخصًا يدعى (ناصر عبد الرحمن) ؟!

تلاشى المرح السخيف من على وجه (حسين) ، ليحل محله عبوس متجهم ، وبعد هنيهة من صمت وتفكير رد على سؤالى بجدية لم أتوقعها :

ـ لعلك لا تقصدين الصحفى (ناصر عبد الرحمن) ؟!

بداية لا بأس بها :

ـ هل تعرفه ؟!

ـ كنت ..

قالها (حسين) فى أسى عرفت مصدره عندما تابع :

ـ .. قبل أن يختفى هو الآخر منذ ثلاث سنوات !

هتفت فيه مذهولة :

ـ يختفى هو الآخر ؟!

ضيق (حسين) عينيه سائلاً إياى :

ـ هل تحاولين البحث عن صلة بين اختفاء أكثر من صحفى أم ماذا ؟!

غمغمت بصدق وأنا أنظر إلى شاشة المحمول ، التى تفوح رائحة السيد (س) الغامضة من الحروف اللاتينية المتراصة فوقها :

ـ لا أعلم !

هزّ (حسين) رأسه ، وارتسم شبح بسمة صفراء على شفتيه وهو يقول :

ـ يا لك من خبيثة ، إن موضوعًا ذكيًا كهذا يمكن أن يقلب الدنيا ..

ثم إنه تنهد وباح :

ـ .. لقد كان (ناصر) زميلى فى سنين الدراسة دون أن ترقى زمالتنا إلى صداقة ، وعمل عدة سنين كصحفى نشط فى جريدة (الموقف) الحزبية المعارضة ، قبل أن يختفى منذ ثلاث سنوات فى حادث لم يفك شفرة غموضه أحد !

يجب أن أتحرك بسرعة إذن ، قبل أن :

ـ .. سوف أستخدم خيط اختفاء هذا الصحفى بالذات فى تغطيتى الصحفية ، بعد إذنك بالطبع ..

حتى لو لم أكن له سيفعل ، صحفى من نوع (حسين مرشدى) لن يتوانى عن سرقة أى فكرة تمرق من أمامه باسم الشطارة ..

تطلق (حسين) من أمامى مبتعداً ، فيما أقف أنا أمام مدخل البناية ، أفكر فى الاتجاه الصحيح لخطوتى التالية ، وأحاول التغلب على ارتباكى الرهيب ..

* * *

قبل الساعة الثانية ظهراً بخمس دقائق ـ موعد انصراف الموظفين ـ كنت أقف أمام مكتب (مروة) ، التى استلمت عملها قريبًا كمعيدة فى كلية الإعلام ، حيث درسنا أربع سنوات ..

دهشت (مروة) لمرآى ، دهشة متوجة بفرحة :

ـ (نسرين) .. ما هذه الزيارة غير المتوقعة ؟!

بادرتها بالقول حتى لا أهدر وقتًا :

ـ أريد استشارتك الصحفية العاجلة فى أمر طارئ ..

أشارت إلى مقعد شاغر فى غرفتها :

ـ تفضلى بالجلوس والتقطى أنفاسك أولاً ..

لم أفعل ، وسألت مستندة بكفى على سطح مكتبها :

ـ هل تعرفين (ناصر عبد الرحمن) ؟!

كنا نطلق على (مروة) أيام الدراسة لقب (الآنسة موسوعة) ، لأنها ترد على أى سؤال فى أقل وقت ممكن ، وبدقة مطلقة ..

ـ الصحفى فى جريدة (الموقف) الذى اختفى قبل عدة سنوات ؟!

ألم أقل لكم ؟!

ـ هو ..

ـ لا أعرف عنه الكثير ، ولم أكن أقرأ له ، غير أنى تابعت حادث اختفائه الذى لم يعرف أحد سره حتى الآن ..

ـ أريد أن أعرف أى شىء عن القضايا التى كان يكتب عنها قبل اختفائه ..

ـ قلت لك أننى لم أقرأ له ، لكنه عمومًا كان متخصصًا فى متابعة قضايا فساد رجال الأعمال ..

بدأ الموضوع يفرز رائحة كريهة تنافس رائحة (حسين مرشدى) نفسه !

ـ أين يمكننى أن أجد أعماله إذن ؟!

هزّت (مروة) كتفيها ، وفكرت للحظة قبل أن تقول :

ـ جربى مقر جريدة (الموقف) نفسها لو كانوا يملكون أرشيفًا ..

استدرت مغادرة على الفور ، وسمعتها تهتف من ورائى :

ـ .. أو دار الكتب ، إنهم يحتفظون بالأعداد القديمة من كل الجرائد ..

* * *

فى مقر جريدة (الموقف) قال لى الموظف المختص :

ـ غير ممكن يا آنسة !

سألته :

ـ لماذا ؟! ألا تملكون أرشيفًا للأعداد القديمة ؟!

ـ كنا نملك واحدًا ، قبل الحريق الذى اندلع فيه ..

الفئران تمرح داخل صدرى :

ـ حريق ؟! متى ؟!

ـ منذ سنتين ونصف تقريبًا !

يا لهول الرائحة الكريهة ..

* * *

أشارت موظفة دار الكتب المختصة إلى مجلدات جريدة (الموقف) التى تعلوها الأتربة فوق الرفوف ، قائلة لى :

ـ هاهى ذى ، خذى وقتك ..

شكرتها بإيماءة من رأسى ، وبمجرد مغادرتها انقضضت على المجلدات كما ينقض الذئب على فريسته بعد جوع طال ..

بحثت عن التاريخ المطلوب ، قبل ثلاث سنوات ، واستغرق الأمر منى ساعتين ونصف تقريبًا حتى وجدت الصحف التى تحمل التواريخ المطلوبة ، وبدأت بعدها مرحلة البحث عن الصفحات الخاصة بتحقيقات (ناصر عبد الرحمن) ..

دون جدوى !

استغربت الموقف فى البداية ، لكن الحقيقة اتضحت عندما أمعنت النظر فى أرقام الصفحات ..

صفحة ١٢ تليها صفحة ١٥ !

صفحة ٦ تليها صفحة ١١ !

صفحة ٤ تليها صفحة ٧ !

صفحات كاملة قد تم انتزاعها من أعداد صحيفة (الموقف) الخاصة بهذه الفترة ، جميع الصفحات التى تحمل اسم (ناصر عبد الرحمن) تقريبًا ، فلم أجد اسمه فى أى منها هنا ..

إنهم يريدون محو إنجازاته من الوجود تمامًا ، بعد أن أكل فوقها من اشتروها طعامهم فى تلك الفترة كما يفعل أغلب المصريين !

إنهم .. من ؟!

نفضت الأتربة التى علقت بيدى وملابسى وفكرة تبرق فى رأسى ..

ربما كانت الإجابة واضحة ، لكنى ما زلت فى حاجة للتأكد ..

★ ★ ★

أين يمكننى العثور على صحف قديمة غير (سور الأزبكية) ؟!

أمام أول بائع للكتب والمجلات توقفت ، وقلت أناوله ورقة :

ـ أريد أعداد جريدة (الموقف) الخاصة بهذه التواريخ ..

تناول البائع الورقة منى ، ونظر إليها مليًا قبل أن يمد يده بها نحوى مجددًا ، ويقول :

ـ غير متوفرة لدى بكل أسف ..

لم أكن مستعدة للتراجع :

ـ أريدها بأى ثمن ..

أمام الأموال الناس شموع تذوب :

ـ أى ثمن ؟

ـ أى ثمن !

ـ عودى إلىّ فى الليل ، وسأكون قد وفرتها لك ..

وكان هذا أفضل ما يمكن أن أحلم به ..

حتى المساء إذن يا سيد (ناصر) ، أيها المختفى منذ سنين ثلاث !

★ ★ ★

فى السنترال الرئيسى المطل على شارع (رمسيس) قلبت فى دليل الهواتف الضخم ، وعثرت على اثنين يحملان نفس الاسم : (ناصر عبد الرحمن) ، فقررت تجريب أول الرقمين ..

ـ آلو ..

ـ منزل السيد (ناصر عبد الرحمن) ؟!

ـ من يريده ؟!

ـ صحفية ..

صياح أبعدت على إثره السماعة حتى لا تتهتك طبلة أذنى الحساسة :

ـ أبى ، هناك من يطلبك على الهاتف !

أغلقت السماعة فورًا ، فأنا لا أريد (ناصر عبد الرحمن) غير مختف ..

رقم الهاتف الثانى والعنوان هما مبغاى إذن ، سأذهب على الفور دون اتصال وليكن ما يكون ..

* * *

لم أجد منزله فى العنوان المطلوب ، وأخبرنى بقال أسفل منزله أن زوجته وأبناءه قد غادرا المنطقة بأسر منذ سنتين ، لأنها لم تعد تناسب مستواهم الاقتصادى ..

- وهل تحسن مستواهم الاقتصادى إلى هذا الحد بعد اختفاء عائل الأسرة الأساسى ؟!

هتف البقال :

- بالطبع ، إن أبناءه يدرسون الآن فى مدارس للغات ، وأرملته تعمل دون شهادة عليا فى إحدى شركات (عاصم البحراوى) الكبرى ، لقد رأيتها بعينى تركب سيارة زوجها الجديدة ذات الموديل الحديث جدًا ..

فئران وفئران ..

ورائحة كريهة ..

ترى ، أى شبكة جهنمية هذه التى وقعت فيها ؟!

* * *

(سور الأزبكية) فى الليل ..

كان البائع قد حضّر لى رزمتين ضخمتين من الصحف مربوطة بخيوط سميكة ، أشار لى نحوها قائلاً :

- أعداد جريدة (الموقف) كاملة منذ صدروها حتى اليوم ..

شكرته وطلبت منه أن يستخرج لى الأعداد المدونة عنده فى الورقة ، فمط شفتيه وامتثل ، ونقدته مبلغًا كبيرًا يليق بالمجموعة الكاملة ..

احتضنت الأعداد كأنها أبنائى ، ولو كنت أستطيع قراءتها فى سيارة الأجرة التى عادت بى للمنزل لفعلت ، غير أنى صبرت حتى اغلق باب الشقة خلفى ، وألقيتها على الأرض ثم شرعت فى قراءتها فورًا ..

وجدت الصفحات المفقودة من دار الكتب ، والتى التهمها حريق الأرشيف فى مقر الجريدة ..

هجوم مستمر على رجال أعمال معروفين فى قضايا فساد ورشوة ونصب وتدليس وتزوير ..

آخر التحقيقات التى تحمل اسم (ناصر عبد الرحمن) كان عنوانه :

ابن (عاصم البحراوى) يحصل على قروض بنكية ضخمة دون ضمانات

بعدها اختفى اسم (ناصر) من الجريدة تمامًا ..

واختفى (ناصر) نفسه من الحياة ..

هكذا إذن تتضح الصورة إلى حد اليقين ، إن هناك رابط أكيد بين اختفاء (ناصر عبد الرحمن) و(هلال رضا) ، وهناك رابط أكثر تأكيدًا بين اختفاء كل منهما وفساد عائلة (البحراوى) الأخطبوطية ..

مع كوب النسكافيه وصوت (عبد الحليم) إذن ، سوف أقرر خطوتى التالية ..

* * *

٥ ـ مواجهة شجاعة ..

كانت الخيارات أمامى محدودة :

١ـ إبلاغ الشرطة بشكوكى ، ولأنى مخطوبة لـ (هشام) فقد كنت أعلم أنهم لن يلتفتوا لهذه الشكوك ما لم تكن مدعومة بأدلة مادية قوية لا أملكها بكل أسف ..

٢ـ أن أنشر ما وصلت إليه فى هيئة تحقيق أو تقرير أو حتى مقال ، هذا إن وجدت مخبولاً يقبل بالنشر دون أساتيد قوية ، لتنفتح عليه أبواب جهنم الحمراء ..

٣ـ أنتظر أن ينقذنى السيد (س) بأحد حلوله السحرية مما يعنى أننى قد أنتظر للأبد ..

٤ـ مهاجمة الذئاب فى عقر دارهم ، والذهاب إلى مقر مجموعة (البحراوى جروب) لألقى باستنتاجاتى أمامهم ، فربما يقودنى هذا إلى خيط جديد ..

الحل الرابع هو الوحيد القابل للتنفيذ ، فالحل الخامس ـ وهو تجاهل كل شىء والمضى فى حياتى قدمًا ـ لم يكن خيارًا مطروحًا ..

لسوء الحظ !

* * *

مقر مجموعة (البحراوى جروب) ..

قلت للسكرتيرة المتأنقة التى تحول وجهها إلى لوحة تجريدية لمساحيق التجميل ، مما جعلها تشبه فتيات الأغانى أو مذيعات التليفزيون :

ـ أريد أن أقابل السيد (عاصم البحراوى) من فضلك ..

ابتسمت فبدت شبيهة بمسخ أو مصاصة دماء ، وقالت :

ـ لم يأت اليوم ..

ـ ماذا عن السيد (جلال البحراوى) إذن ؟!

ـ موجود ، هل هناك موعد سابق ؟!

ـ لا يوجد ..

ـ لن تستطيعى مقابلته إذن ..

ـ إننى صحفية ..

ـ هذا لن يغير من الأمر شيئًا ..

ـ أخبريه أننى هنا بشأن الأستاذ (هلال رضا) ..

ـ لكن ...

قاطعتها :

ـ لو طلب منى أن أغادر بعد أن تبلغيه ، فسأفعل ..

ودون أن أترك لها فرصة للاعتراض توجهت للجلوس على المقعد الوثير أمام مكتبها ، المقعد الوثير جدًا حتى أننى كدت أغفو فوقه ، بينما قامت هى باتصال محدود هتفت بى فى منتصفه وهى تضع يدها فوق السماعة :

ـ الاسم من فضلك !

بكل أريحية قلت :

ـ (نسرين) .. (نسرين الجبالى) ..

عادت لاتصالها المحدود وذكرت خلاله اسمى همسًا ، ثم أنهته مشيرة لباب غرفة المكتب الذى تعلوه لافتة سوداء صغيرة ، مكتوب فوقها بخط أبيض (نائب رئيس مجلس الإدارة) ..

دخلت على الفور ، لأرى فى الداخل صورة مصغرة للبذخ الإنسانى فى أقصى حالاته ..

غرفة المكتب عبارة عن مساحة شاسعة كملعب كبير لكرة القدم ، مفروشة بأفخر أنواع السجاد ، على الحائط لوحات موقعة بأسماء فنانين عالميين ، المقاعد ذات تشكيل فنى مبهر ، الستائر نفسها تحبس الأنفاس ، هناك نافورة يسيل منها الماء الملون بالضوء فى أحد الأركان ، وخلف المكتب العريض كان (جلال البحراوى) جالسًا فى تألق بعينيه اللتين يشع منهما الطموح ..

والتحفز ..

ـ مرحبًا يا آنسة (نسرين) .. أم هل أقول سيدة ؟!

قلت والباب ينغلق من خلفى :

ـ آنسة ..

نظر إلى خاتم الخطوبة فى إصبعى :

ـ لن يمضى وقت طويل حتى يتغير اللقب ..

قلت جملتى الأبدية الخالدة ، وأنا أجلس على أحد المقاعد ذات التشكيل الفنى المبهر دون دعوة :

ـ من يدرى ؟!

مال (جلال البحراوى) للأمام ، شابكًا كفيه وناظرًا إلى ومتحدثًا :

ـ بماذا يمكننى خدمتك يا آنسة (نسرين) ؟!

قررت أن أكون مثالاً مجسدًا للمباشرة وعدم اللجوء لمقدمات من أى نوع :

ـ إننى هنا بشأن الأستاذ (هلال رضا) ..

قال ببسمة تليق بذئب :

ـ أخبرتنى السكرتيرة بهذا .. (هلال رضا) الذى يشتمنا على صفحات الجرائد .. ماذا عنه ؟!

حافظت على المباشرة وعدم اللجوء للمقدمات :

ـ أين هو ؟!

لم يبد عليه الارتباك للحظة وهو يهز كتفيه فى استهانة قائلاً :

ـ وكيف لى أن أعرف ؟!

محترف .. ما فى هذا من شك ، أو أننى مخطئة .. وهو احتمال بعيد ..

ـ هل هو حى أم ميت ؟!

سألته فأجابنى على الفور ، كأن الإجابات كانت معدة سلفًا :

ـ هذه أيضًا لا أعرفها ..

هممت بقول شىء آخر لكنه سبقنى :

ـ لو كنت ستوجهين لى سؤالاً آخر فيمكنك أن تغلقى فمك ، واتركينى أوجه لك أنا السؤال ، ما الذى تريدينه بالتحديد يا .. آنسة ؟!

ـ أريد أن أعرف الحقيقة ..

مد يده ليضغط زرًا مجاورًا له وهو يقول :

ـ تستطيعين الانصراف يا عزيزتى ، فما تبحثين عنه ليس لدى بكل أسف ..

لكن عبارتى أوقفت يده قبل أن تمس الزر :

ـ أريد أن أعرف العلاقة بين ما يحدث الآن لـ (هلال رضا) و ما حدث فى الماضى لـ (ناصر عبد الرحمن) ..

تجمد وجهه ، فقد بوغت أخيرًا بما لم يكن يتوقعه ..

اشتعلت حرب النظرات ، وشحنت الكهرباء الاستاتيكية هواء الغرفة بالكراهية المتبادلة ، ولما طال الصمت كسرته بقولى :

ـ .. هل ستتحفنى بردود مختلفة على أسئلتى الآن ؟!

مال (جلال) إلى الأمام ، وعاد كفاه ينشبكان إذ قال :

ـ يبدو أنك صحفية ذكية ، وأنا أقدر الأذكياء .. كم تريدين ؟!

قطبت قائلة فى استغراب :

ـ فى مقابل ماذا ؟!

قال :

ـ المستندات .. لابد أنك تريدين المساومة عليها ، ولا مانع لدى على الإطلاق ..

هذا هو الخيط الذى أبحث عنه ..

ـ تعنى المستندات التى أرسلت من يبحث عنها فى شقة (هلال رضا) ؟!

ابتسم فى سخرية :

ـ لو كنت تحاولين التذاكى لتسجيل اعترافى على جهاز تخفينه بين ملابسك ، كما يحدث فى الأفلام العربية الرديئة ، فأنصحك بألا تفعلى ، سيتم تفتيشك بدقة قبل مغادرتك الغرفة ..

ليس الأمر هكذا ، لكنى أيقنت أنى أحدث رجلاً يعرف ما يفعله ، ويحتاط لكل خطر ممكن ..

ـ ألا يمكن أن أكون أخفى مذياعًا ينقل الحوار بيننا إلى سيارة شرطة قريبة ؟!

قلتها حتى أجاريه ، فبصق ضحكة ثم قال :

ـ يا للأفلام العربية الرديئة مرة أخرى .. إن لدى متخصصين فى كشف الذبذبات على نطاق واسع حول المبنى يا فتاة ، ولو لم تكونى سليمة لما استطعتى بلوغ هذا الحد أصلاً ..

يحتاط لكل خطر ممكن ..

قلت واضعة ساقًا فوق أخرى :

ـ ما دمنا نلعب على المكشوف إذن ...

قاطعنى فى صرامة جمدت الدم فى عروقى :

ـ ما دمنا نلعب على المكشوف فكلمتى واحدة : أحضرى المستندات إلىّ فى موعد أقصاه غدًا ، وستتلقين شيكًا بمبلغ مليون جنيه فورًا ..

أذهلنى الموقف ، وجعلنى عاجزة عن المضى فى مشاغبتى ..

مليون جنيه ؟!

ـ .. يمكنك الانصراف الآن ..

نهضت كالمنومة مغناطيسيًا ، وخرجت فى بطء ، ودون مقاومة منى فتشتنى السكرتيرة فى غرفة صغيرة ملحقة بغرفتها ، ولم تعثر على أجهزة تسجيل بالطبع ..

كان رأسى يدور .. ويدور .. ويدور ..

كراقص التنورة فى مولد شعبى ..

لم أعرف أنه فور خروجى رفع (جلال) سماعة هاتفه ، وضغط زر رقم مسجل على الذاكرة ، ثم :

ـ أبى .. اسمعنى جيدًا .. يبدو أن الذيل الباقى فى موضوع (هلال) و(ناصر عبد الرحمن) سوف يتم بتره غدًا على الأكثر ..

صمت وابتسامة ، ثم :

ـ .. لا تقلق ، لقد قابلت الآن من تملك المستندات التى نبحث عنها ، غالبًا ..

صمت دون ابتسامة ، ثم :

ـ .. فى كل الأحوال ، لقد جاءت إلى حتفها بقدميها ، وسأكون مسرورًا بأن أجعلها تنال ما تستحق ، ثق فى هذا !

* * *

ـ هل تسمعين نفسك وأنت تتحدثين يا (نسرين) ؟!

غمغم بها (هشام) بعد أن ألقيت كل ما فى جعبتى أمامه فى غرفة مكتبه ، فقلت بلا مبالاة :

ـ بالطبع ، كل ما أرويه لك قد حدث ، إننى لا أختلق أية وقائع ..

ـ كان رأيى دائمًا أن جنونك سوف يقتلك يومًا ما ..

وملأ صدره بالهواء قبل أن يتابع بنبرة وجلة :

ـ .. يبدو أن هذا اليوم قد أتى أخيرًا ..

ـ ماذا تعنى ؟!

سألته وأنا أعرف الإجابة مسبقًا :

ـ أعنى أن العبث مع الكبار لا تكون عواقبه آمنة ..

قلت متجاهلة ملاحظته ، ومحاولة ترتيب أفكارى مرة أخرى أمامه :

- إن التطابق بين حادثى الاختفاء رغم الفاصل الزمنى بينهما يوجه أصابع الاتهام إلى (عاصم البحراوى) وابنه شئنا أم أبينا ، أراهنك أنهم سيشعلون النيران فى أرشيف جريدة (آراء) وينتزعون صفحات (هلال رضا) من مجلدات دار الكتب كما فعلوا مع جريدة (الموقف) ، هذا إن لم يكونوا يقومون بهذا فعلاً بينما نتحدث الآن ، السؤال الآن عن ماهية المستندات التى يبحثون عنها ، والتى كان الأستاذ (هلال) يملكها بالتأكيد ويخفيها فى مكان ما ، ليس فى خزنته الخاصة التى سرقوها بالطبع بعد اختفائه ، والتى لم يجدوا ضالتهم فيها ، إنهم يظنون أنها معى الآن ، وهى لعمرى نقطة قوة يجب أن أحسن استغلالها ..

هزّ (هشام) كتفيه ، قائلاً ونبرته غير مقتنعة بما تحمله من كلمات :

- كلها محض استنتاجات غير مبنية على أدلة ، لا يمكن أن نبنى عملنا عليها ..

قلت له بنبرة ذات مغزى :

- بالإضافة للخوف الفطرى من اللعب مع الكبار ، هذا مفهوم بالطبع ..

ضايقه منطقى ، فدافع هاتفًا :

- لا أحد فوق القانون ، علينا فقط أن نعرف قواعد اللعبة حتى نضرب فى الوقت المناسب ، وتصرف غير مسئول مثل ذهابك لمقابلة (جلال البحراوى) يمكن أن يضر أكثر مما ينفع ..

سألته فجأة :

- هل تعتقد أن المستندات لا تزال فى منزل (هلال رضا) ؟!

- لقد فتشناه شبرًا شبرًا ولم نعثر على شىء ..

- ماذا لو تركتنى أبحث بنفسى ؟!

- مستحيل ، انسى !

- يمكننى أن أبحث عن لص محترف يقوم بهذه المهمة بمقابل سخى ..

- صحيح أنك مجنونة ، لكن دعينى أكتشف بنفسى إلى أى حد يمكن أن يصل هذا الجنون ..

- إلى أبعد مما تتصور بكثير ..

- حقًا ؟!

رن جرس هاتف مكتبه ، فرفع (هشام) السماعة وتحدث ، وبعد لحظتين رن هاتفى المحمول ، فرفعته ـ لا يوجد رقم على الشاشة ـ وتحدثت :

ـ السيد (س) ؟!

قلتها على الفور وأنا أبتعد بالهاتف إلى النافذة المطلة على الشارع ، وأخفض صوتى إلى أقصى حد حتى لا يسمعنى (هشام) ..

ـ أجل ، هو أنا ..

الصوت الأجش الذى يتعمد صاحبه تغييره ..

ـ هل أنت من أرسل لى بشأن (ناصر عبد الرحمن) ؟!

ـ ومن يمكن أن يكون غيرى ؟!

سألته :

ـ كيف تعرف كل هذا ؟!

فلم يجبنى :

ـ لا وقت للأسئلة ، يجب أن أمنحك شيئًا على الفور ..

شىء ؟!

ـ تمنحنى ماذا ؟!

تساءلت مستغربة ، ربما يقصد معلومة ما !

ـ قابلينى الآن وستعرفين ..

أقابله ؟!

أقابلك ؟!

أقابل السيد (س) شخصيًا ؟!

أخيرًا حان الوقت ..

ـ ماذا ؟! هل تعنى حقًا ما تقول ؟!

ـ بالتأكيد .. سأنتظر فى (بيكرى) مصر الجديدة ، لا تتأخرى عن النصف الساعة ..

إنه لا يمزح ، ولا يتلذذ بممارسة سخرياته كالعادة ..

هتفت كالمعتوهة :

ـ لا تقلق ، سأكون هناك قبلها ، ولكن .. كيف سأعرفك ؟!

ـ لا تقلقى أنت .. السيد (س) سوف يتعرف عليك ..

لم أجد ما يقال ، ولم يغلق هو الخط على الفور ..

ـ ماذا ؟!

سألته بعد أن طال الصمت ، فأتاني صوته الأجش إياه ، محملاً بعبق عاطفي غريب :

ـ من فضلك ، حاولي أن تكوني على مستوى المسئولية الجسيمة ..

ثم أغلق الخط ..

مضخة قلبي تعمل بأقصى طاقتها ، وعقلي عاجز عن إدراك الحقيقة الرائعة والمفزعة في آن واحد ، وأنا أستدير نحو (هشام) لأراه ـ في جلسته خلف مكتبه ـ ينظر لي ويتساءل :

ـ من ؟!

المعرفة على قدر الحاجة :

ـ أحد مصادري الصحفية ، لا تشغل بالك ..

ثم إني اتجهت إلى باب مكتبه :

ـ .. ورائي عمل مهم ، يجب أن أغادر الآن ..

ـ انتظري ..

هتف بها (هشام) ، فالتفتت إليه مقطبة فيما يشبه الاستنكار ، غير أني لمحت في ملامحه الرغبة في البوح بحقيقة ما ..

ـ ماذا ؟!

ـ ربما تريدين أن تعرفي ما عرفته عبر المكالمة التي أنتهى الآن ..

عدت أقول :

ـ ماذا ؟!

ـ أرشيف جريدة (آراء) ..

مذهولة :

ـ كلا ، لا تقل لي أنه ...

ـ إنهم يطفئون الحريق الذي شب فيه منذ ساعة تقريبًا !

* * *

لوبو

٦ـ لقاء قصير ..

(بيكرى) مصر الجديدة ، والانتظار فوق جمر ملتهب ..

مازالت هناك خمس دقائق كاملة حتى تكتمل النصف ساعة ، لقد حضرت مبكرة بربع ساعة على الأقل واللهفة تكاد تمزقنى ..

الدقيقة تمر كأنها قرون ..

حقًا ، إن الزمن نسبى يا سيد (آينشتاين) ..

أصابعى تطرق رخام المائدة ، قدمى تضرب الأرضية ، الموسيقى الناعمة تخترق أعصابى وتحرقنى بالصداع ، عقرب الثوانى يتحرك كسلحفاة منهكة ..

هل حقًا يمكن أن أقابل السيد (س) شخصيًا ؟! أم أنها واحدة من خدعه التى لا تنتهى ؟!

دار فى رأسى شريط الذكريات ، بداية معرفتى به ورفضى له كرجل متهم فى قضية مقتل طالب الطب ، قضية عين القط مع رجل الجاليرى والسيدة العجوز ، مسرح الجامعة ومسرحية الأعرج ، القاتل المتسلل الذى أدار دائرة الموت ، صديقتى الإسكندرانية وموت حصانها ، مصرع المايسترو وهو يقود عزف سيمفونيته الأخيرة دقات الفزع ، ما رأيته مع إخوة الدم

فى قصر البارون ، الفنان البوهيمى الذى يرسم وراء الظلال ، اللغة التى حلت فى تمثال إله الشر الفرعونى ، الفتاة التى تحلم وتتحقق أحلامها ، المرأة التى ماتت مرتين ، عبورى للخط الأحمر ، خروجى من نقطة الصفر ، انتظارى للقادمين ، قراءتى للسيناريو ، وأخيرًا ها أنذا فى قضية من النوع المغلق ..

تاريخ طويل بالفعل ، سنة وأكثر وأنا أعرف هذا الرجل ، ولا أعرفه !!

سنة وأكثر وأنا أحلم به ، وبلحظة لقائه ..

سنة وأكثر وأنا أضع لهويته تصورات لا نهائية ، وعندما أتعب ألقى بها كلها خلف ظهرى وأترك نهر الحياة يجرفنى ، حتى يظهر معترضًا طريقى من جديد فى قضية أخرى ..

هل يمكن أن ألقاه الآن بالفعل ؛ لينزاح الستار عن كثير من غموضه ؟!

هل يمكن أن ...

تبًا لبطء عقارب الساعة ..

تبًا لكل شىء ..

برد مشروب الشيكولاتة الساخن أمامى ، لا يمكن أن أمد إليه يدًا فى لحظة عصبية كهذه ..

يجب أن أبحث عن أى أفكار تلهينى حتى ..

ـ مساء الخير يا آنسة (نسرين) ..

*صوت رفيع ، حاد ، لزج ، ورائحة تبغ تملأ الهواء المحيط بأنفى فجأة ..

استدرت يمينًا نحو مصدر الصوت فى انتفاضة مباغتة ، ورأيته ..

لا يمكن أن يكون هذا هو السيد (س) ..

لا يمكن أبدًا ..

قصير القامة جدًا ، أصلع الرأس ، طويل الأنف ، حاد العينين ، يرتدى بذلة بلون القهوة باللبن ، بالفرنسية Café au lait ؛ البذلة كالحة ورابطة العنق المزركشة مربوطة فى غير عناية ، فى يده حقيبة من الجلد الأسود القديم الذى تمزق فى غير موضع ، والبسمة المستفزة المشعة برائحة التبغ على شفتيه ـ الرفيعتين إلى حد التلاشى ـ لا تطاق ..

ـ من أنت ؟!

سألته فى توتر ، ولدهشتى استدار حولى واتخذ مقعده أمامى قائلاً :

ـ أنا من تنتظرين لقاءه هاهنا من ربع ساعة !

السيد (س) ؟!

غير معقول ..

ـ .. لا تنظرى لى هكذا ، واطلبى لى كوبًا من الشيكولاتة الساخنة أنا الآخر ، يا إلهى .. لكم أعشق الشيكولاتة الساخنة يا صغيرتى ..

فى ذهول واجم رفعت سبابتى مشيرة إليه وأنا أجاهد لسؤاله :

ـ أنت .. أنت السيد (س) ؟!

أشار إلى صدره متسائلا :

ـ ألا أبدو كذلك ؟!

ثم إنه فرك كفيه ، واتسعت بسمته الرفيعة إذ تابع :

ـ .. هل خيب مرآى ظنك إلى هذا الحد ؟!

لم أقو على الرد ، إنه ينسف أحلامى نسفًا ، و ...

وماذا ؟!

هذا الرجل الذى يخرج الآن سيجارًا ضخمًا من جيب سترته الداخلى ؛ ليقضم طرفه ثم يبصقه بقوة على الأرض ، هذا الرجل لا يصلح بطلا على الإطلاق ..

ـ .. على كلٍ لا تنظرى لى هكذا يا صغيرتى ..

وأشعل طرف السيجارة بقداحة صينية رخيصة ، ثم نفثه فى الهواء بيننا لتتكاثف فيه رائحة التبغ ، وأكمل :

ـ .. لست هو !

كدت أتنهد فى راحة ، لكن الغموض ما زال يتكاثف مع سحابة الدخان التى ينفثه وهو يشير للنادل بالاقتراب :

ـ من أنت إذن ؟!

ـ شيكولاتة ساخنة من فضلك ..

ابتعد النادل بعد أن دوّن الطلب ، ومد القصير يده فى جيب سترته الداخلى مرة أخرى ليخرج بطاقة ، ناولها لى دون أن يصدر عنه إلا التبسم الأصفر والدخان ..

تناولت البطاقة بسرعة ونظرت فيها ..

سبعاوى أبو الحمد السبعاوى

محامى

ثم قائمة من بأرقام الهواتف وعنوان لمكتبه فى منطقة (الشيخ رمضان) بحى (شبرا) ..

سألته دون أدنى قدر من الذوق ، ولم أكن فى حاجة للقدر الأدنى منه فى الواقع :

ـ هل أنت (سبعاوى) هذا ؟!

ـ لى الشرف أن أكون يا آنستى الصغيرة ..

هززت كتفى ، ودسست البطاقة فى جيبى :

ـ لكنى لم أكن أنتظرك أنت ..

هزّ كتفيه ، ونفث الدخان من خلال البسمة الصفراء :

ـ أعلم ، كنت تنتظرينه .. السيد (س) ، أليس كذلك ؟!

سألته محاولة سبر أغواره :

ـ هل تعرفه ؟!

ففاجأنى :

ـ طبعًا ، أنا محاميه الخاص !

صرخت فيه :

ـ ماذا ؟!

فاستدارت نحوى رءوس الحاضرين جميعًا ، واتسعت بسمة السيد (سبعاوى) بينما تمنيت أن تنشق الأرض وتبلعنى رحمة من النظرات المحدقة ..

عاد الحاضرون إلى شئونهم بعد لحظة من الصمت ، ربما تناقش بعضهم حول غرابة أطوار من يرتادون المقاهى هذه الأيام ، بينما نحيت أنا حرجى جانبًا كى أفسح طريقًا لذهولى ..

ـ حاولى ألا تلفتى إلينا الأنظار من فضلك ..

قالها (سبعاوى) فى هدوء وعاد يمتص إصبع الكفتة بين سبابته وإبهامه ، فيما ألقيت أنا فى وجهى بسؤالى :

ـ هل رأيته رأى العين ؟!

دخان وبسمة صفراء :

ـ لا يوجد محام لا يلتقى بموكله ..

تزاحمت علامات الاستفهام فأثقلت لسانى ، غير أنى انتقيت أحدها عشوائيًا :

ـ ولماذا لم يأت بنفسه ؟!

بسمة صفراء ودخان :

ـ لأنه لا يحب التواجد فى الأماكن العامة ..

سؤال عشوائى آخر :

ـ ما اسمه الحقيقى ؟! لابد أن السيد (س) هذا مجرد اسم مستعار !

وإجابة حاسمة :

ـ موكلى لم يصرح لى بإفشاء أى معلومات عنه بكل أسف ..

ثم إن (سبعاوى) وضع السيجار على طرف المنفضة فى منتصف الطاولة ، وأمسك بحقيبته ليرفعها فوق حجره ، وشرع فى فتحها مواصلا :

ـ .. إننى هنا فى مهمة محددة ، وسريعة ..

صمت وأنا أراقبه يفتح الحقيبة ، ويخرج منها مظروفًا كبيرًا مغلفًا بشريط لاصق أكثر من مرة ، ومغطى بطبقة من البلاستيك الشفاف العازل ..

أعاد (سبعاوى) الحقيبة إلى مكانها فوق الأرض ، ومد لى يده بالمظروف :

ـ .. تفضلى ..

سألته فى اهتمام :

ـ ما هذا ؟!

ـ أمانة كلفنى موكلى بتوصيلها لك هنا ، فى هذا الموعد ..

تناولت المظروف مع سؤال جديد :

ـ ما الذى يحويه هذا المظروف ؟!

ـ لا أملك أدنى فكرة ، ما أنا إلا ساعى بريد يا فتاتى ..

ـ إذن ..

قلتها ولم أكمل العبارة ، ومزقت الغلاف البلاستيكى وشريط اللاصق على الفور ، لأجد داخل المظروف ملفًا متخمًا بالأوراق ..

وضع النادل كوب الشيكولاتة الساخنة أمام (سبعاوى) فأخذ يرشف منها متلذذًا ، بينما اتسعت عيناى ذهولا وأنا أرى الأوراق التى تتخم الملف ، وألهث ..

إنها المستندات التى نشر (هلال رضا) بعضًا منها فى مقاله الأخير بجريدته ، ومستندات أخرى تدين عائلة (البحراوى) فى قضايا رشوة وتزوير وقروض بضمانات وهمية ، فقط لو وصلت إلى مكتب النائب العام !

إنها المستندات التى يبحثون عنها بالتأكيد ، المستندات الأصلية ..

لم أقو على منع نفسى من السؤال :

ـ كيف حصل السيد (س) على هذه المستندات ؟!

رشفة وبسمة صفراء :

ـ كلفنى بإخبارك أنه جاء بها من منزل (هلال رضا) نفسه قبل أن يسرقوا خزنته الخاصة ويقلبوه رأسًا على عقب ، كان (هلال) يخبؤها أسفل الثلاجة !

رباه ، إن البصمة التى تحدث عنها (هشام) إذن تخص السيد (س) ..

ـ .. لم يكن حريصًا بما يكفى هذه المرة ليمسح كل أثر لوجوده ..

تجاوزت هذه النقطة مؤقتًا ، وأنا أهمس معيدة الملف إلى المظروف :

ـ وماذا يريدنى أن أفعل بهذا الملف ؟!

بسمة صفراء ورشفة :

ـ كلفنى بإخبارك أن تفعلى ما ترينه صحيحًا ..

يا للمأزق ، ويا للمسئولية الجسيمة التى طلب منى أن أكون على مستواها !

ماذا يمكن أن أفعل ؟!

أحتاج كالعادة إلى ترتيب أفكارى ..

أنهى (سبعاوى) الكوب بسرعة ، ونهض مطفئًا سيجاره الطويل ليعيده إلى جيب سترته الداخلى ، وحمل حقيبته قائلاً :

ـ أستأذن الآن فى المغادرة فأمامى حفنة لا بأس بها من المواعيد ..

سيغادر هكذا بكل بساطة ؟!

ـ .. كلفنى موكلى أن أسمح لك باللجوء إلىّ فى أى وقت تحتاجيننى فيه ، فى البطاقة عنوانى وأرقام هواتفى ، كلمينى متى أحببتِ يا .. صغيرتى ..

وتركنى مع المظروف ، أضرب أخماسًا فى أسداس ..

* * *

ناولت المظروف لشاب بسيط يقف فى كشك تصوير مستندات أمام جامعة (عين شمس) ، وقلت :

ـ نسخة واحدة من فضلك ، وبسرعة ..

الاحتياط واجب ..

أخرجت بطاقة اتصال هاتفى من جيب سترتى واتجهت إلى كابينة اتصال خضراء أستطيع منها رؤية الشاب وهو يقوم بعملية التصوير الخطرة ..

وطلبت رقم (هشام) ..

ـ ما آخر الأخبار ؟!

سألته فأجابنى :

ـ توقعاتك صدقت تمامًا ، أرسلت أحد المخبرين إلى دار الكتب ووجد هناك شخصًا ينزع صفحات كاملة من مجلدات جريدة (آراء) ، للأسف استطاع الفرار قبل أن نمسك به ..

تجاوز الأمر حد الشكوك إلى منطقة اليقين :

ـ وهل توصلتم إلى شخصية صاحب البصمة على ثلاجة (هلال رضا) ؟!

ـ ليس بعد ، لن تكون مهمة سهلة على الإطلاق ..

ثم إنه سألنى :

ـ بالمناسبة ، أين أنت الآن ؟!

ـ أبحث عن الحقيقة والمتاعب كما أفعل دائمًا ..

ـ توقعت هذا ، وهل وصلت لشىء ؟!

ـ أحتاج لاستشارتك فى أمر يؤرقنى ..

ـ مرينى ..

ـ لو افترضنا أن أحدًا قد وجد المستندات التى يبحث عنها (عاصم) و(جلال البحراوى) ، ما أفضل تصرف يمكنه أن يقدم عليه ؟!

أجابنى دون تفكير :

ـ أن يسلمها لنا أو للنيابة على الفور ..

ـ حتى لو كان هذا قد يعرض حياة (هلال رضا) للخطر ؟!

ـ تعريض حياة واحدة للخطر أفضل من تعريض حياتين ، وتعريض حياتين أفضل من تعريض عشرة ، وعشرة أفضل من مائة ، ومائة أفضل من ألف ، وألف أفضل من مليون وهكذا !

ـ أما من وسيلة للحفاظ على حياة الجميع ؟!

ـ لا أظن ..

هكذا سيفكر أى رجل شرطة بالطبع ..

ـ أشكرك يا عزيزى ..

ـ لو كنتِ قد عثرت على المستندات فأفضل ما يمكنك عمله هو ...

قاطعته :

ـ رصيدى ينتهى ، سأهاتفك لاحقًا ..

ووضعت السماعة فى مكانها بعنف ، ولم يكن رصيدى ينتهى بالفعل ..

عدت إلى كشك تصوير المستندات وكان الشاب لا يزال منهمكًا فى العمل ..

سبحت فى بحر أفكارى المتلاطم الأمواج :

تقديم المستندات إلى (جلال البحراوى) كما طلب منى سيضمن لى شيكًا بمليون جنيه مرة واحدة ، أى حياة جديدة بالكامل ، شقة فى (الزمالك) أو (المهندسين) ، سيارة آخر موديل ، ربما فتحت جريدتى الخاصة وسافرت فى رحلة حول العالم ..

لكنى سأخسر أهم ما أملكه : نفسى ، ولن يفيد المرء أن يربح العالم ويخسر نفسه كما قال السيد المسيح ، ثم من الذى يضمن لى أن (جلال) سوف يلتزم بعهده ؟!

تسليمى المستندات للجهات المختصة سيعرض حياة (هلال رضا) للخطر الأكيد ، وهو ما لن أقدم عليه قبل أن أتأكد من عدم وجود حلول أخرى ..

هناك حل نكى ، أقوم بحفظ المستندات الأصلية عند شخص أثق فيه ، وأتقدم بالصور التى تخرج من آلة التصوير الآن إلى (جلال) ، وأساومه أن يبرهن لى على حياة (هلال رضا) فى مقابل حصوله على النسخة الأصلية ، وسيفعل بالتأكيد خاصة عندما أوفر عليه مبلغ المليون جنيه ..

لماذا شخص أثق فيه ، ولماذا لا أخفيها فى منزلى والسلام ؟!

لأنه أول مكان سوف يبحثون فيه أيها الأذكياء !

المعضلة هى : من ؟!

من يمكننى أن أثق فيه لدرجة حفظ المستندات عنده ؟!

(هشام) سيتقدم بالأوراق للنيابة دون تفكير ، أبى علاقتى به متوترة بعد ما حدث ، (رحاب) أجبن من أن توافق ، (مروه) ستضم صوتها إلى صوت (هشام) ، وإن لم تتقدم بالأوراق إلى النيابة بنفسها ، فسترفض أخذها منى على الأقل ..

مَنْ إذن ؟!

إن الاسم يطرح نفسه بنفسه :

(شيماء رويتر) مع بعض الضغط الخفيف !

* * *

وضع النادل الأطباق أمامنا ، قطع من الكباب والكفتة نائمة على طبقة سميكة من البقدونس ، وكنت أجلس فى مواجهة (شيماء) داخل أفخر مطاعم البلاد ..

استنشقت (شيماء) رائحة الشواء فى وجد ، قبل أن تنظر إلى قائلة فى حذر :

ـ هل أنت واثقة من أنك ستقومين بدفع الحساب لكلينا ؟!

قلت وأنا أختلس نظرة إلى المظروف على المقعد المجاور لى :

ـ كلمتى ما زالت واحدة كعهدك بى ..

ـ إذن ..

صاحت بها (شيماء) فى شبق ، ودون أن تحمل شوكة أو سكينًا بدأت فى حشو فمها بالكباب والكفتة مستخدمة يديها الاثنتين ، مما أعطانى إشارة بدء الإطلاق :

ـ أريد منك خدمة يا عزيزتى ..

صاحت بصوت مخنوق :

ـ اطلبى عينى وسأفقؤها إرضاء لخاطرك ..

حملت المظروف أمام عينيها وقلت :

ـ الموضوع أبسط بكثير ، أريد أن تخفى هذا المظروف عندك فى مكان أمين لبضعة أيام ..

توقفت عن المضغ ، وجحظت عيناها الناظرتان إلى المظروف فى يدى ، ثم سألت :

ـ ما الذى يحويه هذا المظروف ؟!

هززت كتفى وقلت محاولة التهوين :

ـ المستندات الخاصة بقضايا الفساد التى كان يبحث فيها (هلال رضا) قبل اختفائه ..

سعلت (شيماء) بشدة ، واحمر وجهها إلى حد الاختناق ، فنهضت لأضربها على ظهرها ، وناولتها كوب الماء الذى هدأ من سعالها قليلاً ..

ـ ماذا .. ماذا .. تقولين ؟!

سألتنى لاهثة بعد أن جرعت الماء ، ومسحت فمها بظهر كفها ، فقلت :

ـ ما سمعتيه ..

همست (شيماء) وهى تنظر يمنة ويسرة :

ـ المستندات الخاصة بإدانة عائلة (البحراوى) ؟!

إن الأخبار بدأت تنتشر إذن ..

ـ تمامًا ..

قلتها فى ثقة لا أدرى من أين أستمدها ، فارتعدت (شيماء) وهى تسألنى من جديد :

ـ وكيف وصلت إليك ؟!

ـ لى مصادرى الخاصة ..

ـ وتريدیننى أن أحتفظ بها فى مكان أمين ؟!

ـ فى مقابل دعوتى لك على الغداء !

لا يوجد ما هو أجمل من الصراحة المتبادلة ..

ـ لن أستطيع طبعًا ..

ـ خائفة ؟!

ـ بل مرعوبة ، ألا تسمعين عن عائلة (البحراوى) ؟!

ـ تذكرى إذن أنك تخليتى عنى عندما احتجت إليك ..

ـ ولماذا لا تحتفظين بها أنت فى منزلك ؟!

ـ حتى لا أعرض نفسى للخطر ..

لا يوجد ما هو أجمل من الصراحة المتبادلة ..

ـ وتريدين تعريضى أنا للخطر ؟!

ـ الموقف مختلف ، إنهم يعرفوننى وربما بحثوا فى منزلى ..

ـ وربما كانوا يراقبونك الآن .. أليس كذلك ؟!

يا للخيال البوليسى الخصب !

نهضت حاملة المظروف وقد اكتفيت من الجدل البيزنطى ، فنظرت إلى (شيماء) فى استجداء :

ـ .. إلى أين ؟!

ـ سأبحث عن صديقة أشجع منك أستطيع التمائها على بعض الأوراق ..

أشارت إلى الأطباق :

ـ والحساب ؟!

هززت كتفى :

ـ لم أضع قطعة من الطعام فى فمى ، وعليك تحمل مسئولية نفسك .. إلى اللقاء ..

وتركتها ذاهلة ..

إنها تستحق ما سيجرى لها ، تستحقه تمامًا ..

وفى رأسى كانت تولد فكرة أخرى ، شخص أخير يمكننى اللجوء إليه ، رغم أنه لم يكن فى حسبانى على الإطلاق !

* * *

ـ إنك تطلبين منى الاحتفاظ بملف لا أدرى محتوياته لبضعة أيام ، أهذا هو الموقف بالفعل ؟!

نظرت إليه وأنا أغالب الرائحة الكريهة التى تملأ أنفى :

ـ رغم إحساسى الدفين بأنى قد أندم على هذا !

لم أجد سوى (حسين مرشدى) ، ولا عزاء لأصحاب مصانع الصابون والعطور ..

حصلت على رقم هاتفه من سكرتارية جريدة (آراء) ، واتصلت به لنتفق على المقابلة فى (السيدة زينب) ، على مقهى ملىء بأصحاب الروائح الكريهة أمثاله ..

نظر (حسين) إلى المظروف الذى أعدت تغليفه بلاصق قوى وغلاف جديد من البلاستيك ، وقال :

ـ على الأقل أخبرينى ماذا فى داخله ..

كنت قد وعيت الدرس جيّدًا من موقفى السابق مع (شيماء) ، لذا :

ـ العرض واضح يا سيد (حسين) ، إما أن تأخذه أو ترفضه .. عليك الاحتفاظ بهذا الملف حتى أسترده منك بعد بضعة أيام دون أن ينفك اللاصق من فوقه ، ودون أسئلة لا جدوى منها ..

نظر إلىّ مباشرة ، لتلمع عيناه الضيقتان بدهاء :

ـ فى مقابل ماذا ؟!

كنت أنتظر هذا السؤال :

ـ ستكون لك عندى خدمة فى المقابل ..

أمثال (حسين مرشدى) من مرتزقة الصحافة يعيشون على الخدمات التى يقدمونها ، وتقدم لهم فى المقابل من خلال علاقاتهم المتشعبة ، إنهم يسيرون فى حيواتهم حسب المثل الشعبى (من لا تحتاج اليوم لوجهه فربما تحتاج لقفاه غدًا) ، أو (قدم السبت حتى تجد الأحد) !

كنت أعرف لن يرفض بعد مهاجمتى له من هذه الزاوية :

ـ اتفقنا ..

نهضت واضعة يدى فى جيبى ، أستعد لدفع حساب كوب الشاى الذى لم أمد إليه يدًا لأسباب صحية وبيئية ، لكنه لحق بى قبل أن أفعل :

ـ .. عيب .. ماذا تفعلين ؟! الحساب عندى ..

حاولت أن أكون ممتنة :

ـ أشكرك ..

لكنه لم يترك لى الفرصة ، قائلاً بلهجة مترنحة بين الجد والهزل :

ـ هكذا يكون لى عندك خدمتين ، لا واحدة !

★ ★ ★

عدت إلى المنزل فى الرابعة عصرًا ، وكان أبى يستعد للنزول إلى المستشفى ، يساعده أحد ممرضى مستشفاه على الحركة ، بينما تنتظره إحدى سيارات العمل بالأسفل ..

تبادلنا النظرات المنكسرة ، ولم نتحدث ..

ما زال الجرح حيًا ..

هبط أبى ودلفت أنا إلى غرفتى ، أخرجت من درج مكتبى مظروفًا يحوى نسخ المستندات المصورة ضوئيًا ، وعلى سريرى أخذت فى دراستها على مهل ، مع رفيقىّ دربى ، النسكافيه و(عبدالحليم حافظ) ..

بعد ساعة غلبنى النعاس ، فنمت ..

نوم أسود بلا أحلام ولا كوابيس ..

وعلى صوت الطرقات العنيفة استيقظت مفزوعة ..

نظرة خاطفة على الساعة المجاورة للسرير ، التى تضىء عقاربها الفسفورية فى الظلام أخبرتنى أنها السابعة مساء ..

الطرقات العنيفة جعلتنى أقفز من على السرير ، وأتجه نحو باب الشقة بلا تفكير ..

ـ من ؟!

طرقات عنيفة ..

نظرت عبر العين السحرية فلم أميز الوجه الملتصق بها ..

طرقات عنيفة ..

مغالبة دوارى أزحت القفل الداخلى ، وأملت المزلاج ..

طرقات عنيفة ..

انفتح الباب ، وأدركت خطئى متأخرة جدًا ..

كالمعتاد ..

اندفع البـاب فى وجهى فطرت إلى الخلف وسقطت على الأرض ليشتعل عامود من النار فى منتصف ظهرى ، وقبل أن أدرك ما يحدث وجدتهم يتكالبون علىّ كالذباب العملاق ..

دخل وجه نحيل مجال بصرى ، ماذا يـده ببخاخة أدركت ماهيتها بعد فوات الأوان ..

كالمعتاد ..

انطلق البخاخ يغمـر وجهى ، وسرى الخدر سريعًا فى مسامى ..

فغبت عن الوعى فورًا ..

كالمعتاد !

★ ★ ★

٧ ـ غابة الأقوياء ..

الدوامة تدور بى كإعصار ..

أمد يدى فلا ينجدنى أحد ..

أصرخ فلا يصل الصوت ..

أراه واقفًا يحاول مد يد من الظل نحوى ..

دون جدوى ..

دون جدوى ..

★ ★ ★

أفقت تدريجيًا فى القبو ، لأجد الفأر الشنيع عن يمينى ، والأستاذ (هلال رضا) عن يسارى ..

تلاقت نظراتنا طويلاً وقد منعنا الشريط اللاصق فوق الفم من رفاهية التحدث ، لكننا دون كلام أدركنا أننا فى مأزق لن تنجينا منه إلا معجزة قد لا تقع ، لا نحتاج لقدر وافر من الذكاء الألمعى حتى ندرك هذه الحقيقة الجلية ..

السكون مخيم من حولنا إلا من صوت مسجل ينبعث

بغناء (ميادة الحناوى) عبر إحدى النوافذ العلوية ، والضوء منبعث من المصباح النحاسى القذر ، والتراب من حولى والفأر يقترب منى ويتشممنى ولا أستطيع حركة أو صراخًا ..

كم مر من الوقت حتى سمعت صوت محرك السيارة يقترب بالأعلى ؟!

لا أدرى ..

توقفت السيارة بالقرب من النافذة ، وسمعت صوت أقدام تقترب منها ، انفتح بابها وازداد دبيب الأقدام السائرة فوق الأرض ..

ـ ما أخبارهما ؟!

الصوت أعرفه ، إنه ...

ـ لم يصدر عنهما أى حركة مريبة حتى الآن يا (جلال) باشا ..

(جلال) .. (جلال البحراوى) ..

ـ سأتأكد من ذلك بنفسى ، خذ جوازات السفر والتذاكر ووزعها على الجميع ، وأنت اتبعنى يا دكتور (حنفى) ..

صوتان طالعان :

ـ أمرك يا (جلال) باشا ..

أقدام تسير ، ثم صمت ..

دقائق ثم انفتح باب القبو ، صوت هبوط زوجان من الأقدام ، وألقى المصباح الوحيد الملوث بروث الحشرات بالضوء على شبحين امتد خلفهما ظلان عملاقان ..

ومع الاقتراب اتضحت الرؤية ..

السيد (جلال البحراوى) بملامحه القاسية ، وعيناه الحادتان المشعتان طموحًا وشرًا ، يقف أمامنا الآن باسمًا ، وخلفه رجل طويل القامة يرتدى معطفًا أبيض متسخًا ، ويمسك بحقيبة صغيرة فى يده ، وينتظر الأمر ..

ـ مرحبًا بالمناضلين فى سبيل الوطن ..

الصمت من جهتنا ، لو انفك الشريط اللاصق عن فمى لأتحفته برد مناسب شجاع على طريقة أبطال أفلام الحركة اللامبالين بالموت ، لكن الوضع هنا مختلف ..

الوضع هنا حقيقى إلى درجة مرعبة ..

حتى الفأر الشنيع فر من جوارى عندما اقترب (جلال البحراوى) ، وخلفه من أطلق عليه فى الخارج اسم الدكتور (حنفى) ..

ـ .. كان بودى أن أستمع إلى الصوتين الجميلين ، لكننا فى منطقة سكنية والصراخ غير مأمون العاقبة ، اعذرانى أيها البطلان ..

محترف .. ما فى هذا من شك ، أو أننى مخطئة .. وهو احتمال بعيد ..

حاولت الهمهمة ، فاتسعت بسمته الذئبية بعينين تلمعان ، فى الحقيقة أن كل ما فيه كان يشع بالبريق ، ذقنه الحليقة ، شعره المصفف ، حلته الفاخرة ، ساعته السويسرية ، حتى حذاؤه الأسود نفسه ، وهو يقول :

ـ .. المشكلة أنكم لا تريدون الاقتناع بأن هناك فروقًا كبيرة بين الناس .. إن الناس درجات ، هكذا خلقهم الخالق .. هذا هو العالم الذى نحيا فيه .. يجب أن يكون هناك أسياد وعبيد .. ونحن الأسياد دون اختيار منا أو من الآخرين .. ولا يجب أبدًا أن تتلطخ رقاب الأقزام رءوس العمالقة وإلا تعرضت للقطع ، وهو أقل ما تستحق .. لأنه خروج عن نظام الكون ..

عرض مسرحى غير متوقع :

ـ .. المشكلة الثانية أنكم تريدون التمرد وتصورون حماقتكم على أنها بطولة ، فى حين أن كل ما تريدونه هو مجرد تبديل

الأنوار .. تريدون أن تنالوا ما فى أيدينا .. قصورنا ، سياراتنا ، أرصدتنا البنكية ، أسهمنا فى البورصة .. فإذا أعجزتكم مواهبكم المحدودة عن نيل أمانيكم أخذتم تكيلون لنا الضربات والسباب ، على طريقة الفأر الذى يسب أسد الغابة فى النكتة الشهيرة ، وتصورونا فى كلماتكم على أننا الشياطين وأنتم جيوش التحرير والأمل فى الخلاص .. مع أننا جميعًا نعلم أن هذا هراء ..

واقترب منا ، توقف فى المسافة الضئيلة بينى وبين الأستاذ (هلال) ، ألقى وتابع :

ـ .. (ناصر عبدالرحمن) كان أكبر انتهازى عرفته فى حياتى ، ساومنا كثيرًا على بيع ما يملكه من مستندات والغريب أننا وافقنا ، لكن الرقم الذى عرضناه عليه لم يعجبه ، كانت أطماعه أكبر مما يملك ، ولما تمادى فى هجومه علينا كان لابد من الرد بطريقة حاسمة .. لقد أتينا به هنا معكم ، واستطعنا التخلص منه بطريقة سهلة غير مؤلمة لنا وله .. ولأننا بشر لا وحوش كما تتصوران ، فقد اهتممنا بأسرته بعد وفاته ، تزوجت أرملته من أحد العاملين لدينا وأعطيناها وظيفة فى إحدى شركاتنا ، واليوم يعيش أبناؤه فى مستوى اقتصادى واجتماعى لم يكن ليحلم به هو نفسه ..

منطق مغلوط ، ومرعب بشدة :

ـ .. المشكلة أننا لم نحصل على كل ما كان فى حوزته من مستندات ، وبعد كل هذه المدة عرفنا مكانها .. يبدو أنه أعطاها للأستاذ (هلال رضا) ليستخدمها ضدنا فى الوقت المناسب ، واستغل فترة السنوات الثلاث فى جمع المزيد من المستندات والتفاصيل حول صفقاتنا ومشاريعنا دون أن ننتبه لذلك .. ولأنك يا عزيزى الأستاذ (هلال) تعيش فى عالم افتراضى من صنع خيالك ، (يوتوبيا) فاضلة لا وجود لها ، فقد رفضت عرضنا السخى بشراء المستندات ونسيان الأمر ، لذا فقد كان لابد مما حدث ، أنت أجبرتنا على هذا ..

منطق الأقوياء ، المرعب بشدة :

ـ .. أما أنت يا عزيزتى البرينة فمن الواضح أنك تجهلين أبسط قواعد عالم رجال الأعمال ، ولا تفهمين منطق الأقوياء .. الغابة التى لابقاء فيها إلا للأصلح .. لما رفض الأستاذ (هلال) طوال الأيام الماضية أن يدلنا على مكان المستندات ، أتيت أنت لتساومين ، لكن حسن التصرف خانك بكل أسف ..

أردت أن أقول أننى لم أكن أعرف شيئًا عن المستندات وقتها ، لكنه الشريط اللاصق ..

فكرت أننى لو خرجت من هنا سليمة فأول ما سأفعله أن أذهب لـ (حسين مرشدى) وأقوم بتسليم المظروف إلى النيابة العامة فورًا ..

أكره مجرد التفكير فى هذه الحقيقة ، لكن كراهيتى لها لن تغير من الأمر شيئًا :

لقد كان (هشام) محقًا !

ـ .. أعطنى ما لديك يا دكتور (حنفى) ..

قالها (جلال البحراوى) وهو ينتصب واقفًا ، ماذًا يده إلى ذى المعطف الأبيض المتسخ فى الخلف ، فأدخل الدكتور (حنفى) يده فى حقيبته الصغيرة وأخرج منها ملفًا زاخرًا بالأوراق ..

الأوراق التى كنت أدرسها على سريرى فى المنزل لا ريب ..

نسخ المستندات المصورة ضوئيًا ..

ـ .. كانت فكرة الاحتفاظ بالمستندات عند شخص آخر ساذجة للغاية ، وتنمُ عن خيال فقير ومحدود يا عزيزتى ..

يا إلهى .. إنها المستندات الأصلية إذن ..

ـ .. لقد كنا نراقب تحركاتك كلها ..

أكره مجرد التفكير فى هذه الحقيقة ، لكن كراهيتى لها لن تغير من الأمر شيئًا :

(شيماء رويتر) أيضًا كانت محقة !

ـ .. لكننا قبل أن نتحرك ، جاءتنا المستندات دون أدنى عناء ، إن السيد (حسين مرشدى) يتمتع بقدر وافر من الذكاء ، جعله يفض محتويات المظروف الذى أعطيته له فور مغادرتك إياه ، ولم يكذب بعدها خبرًا ، لقد جاء إلينا بعدها بساعة واحدة ليسلمنا الملف ، ولأنه يتمتع بقدر وافر من التواضع لم يطلب أكثر من ألفى جنيه فقط فى المقابل ، أى أنه ساعدنى فى توفير مبلغ ٩٩٨ ألف جنيه مرة واحدة كنت سأدفعها لك يا عزيزتى المغفلة ..

تبًا لك ألف مرة يا (حسين مرشدى) ..

كنت أعرف أننى قد أندم على تصرفى ، لكن ليس إلى هذا الحد المخيف أبدًا ..

فرقع (جلال البحراوى) بإصبعيه للدكتور (حنفى) ، فاقترب الأخير منه حاملاً قداحة ذهبية ماركة Zippo ، أخذها منه (جلال) وأشعلها ، فأمسكت النار الجائعة بالأوراق كلها ..

ألقى (جلال) بالأوراق المشتعلة على الأرض ، لتأكلها النيران حتى نهايتها ، ويمتلئ الهواء برائحة الدخان والخيانة ..

ـ .. الآن تمت عملية التطهير ، هكذا يكون كل شىء نظيفًا قبل السفر ، لم تبق إلا المرحلة الأخيرة الخاصة بكما يا عزيزىّ البطلين ..

فرقع (جلال) مرة أخرى بإصبعيه للدكتور (حنفى) ، فأخرج هذا الأخير من حقيبته محقنًا بلاستيكيًا ، وقارورتين صغيرتين تحويان سائلا أبيض ..

ـ .. الوصفة سهلة ، إنها السهولة نفسها ، (المورفين) القوى سوف يخدركما طويلاً ، ويرمى جسديكما فى الصحراء ستقوم الذئاب بالباقى على خير وجه ، وهكذا تتم عملية التطهير بأقل قدر من الخسائر لجميع الأطراف ، كما حدث منذ ثلاث سنوات مع (ناصر عبدالرحمن) ..

يا للنهاية البشعة ..

أخذ الدكتور (حنفى) يرج القارورة الأولى ، ثم غرس فيه المحقن ، واقترب من الأستاذ (هلال) ليكشف عن ذراعه ، ولم يقو الأخير على المقاومة ..

إنه فى حالة شديدة من الإعياء والهزال والإجهاد ، كأنه يستعد لملاقاة الموت نفسه ..

واصل (جلال البحراوى) محاضرته الشيقة :

ـ .. لا أريد أن أقمص دور الشرير (The Villain) فى الروايات البوليسية ، الذى يلقى بكلمات خرقاء على مسامع الأبطال

فى الفصل الأخير ، قبل انقلاب الآية وانتصار الخير على الشر ، لكنى أؤكد لكما أن هذه ليست رواية ، إنه الواقع المؤلم أيها البطلان ..

انغرس سن الحقن فى ذراع الأستاذ (هلال) ، فأغمض عينيه فى ألم بينما اتسعت عيناى رعبًا ، ورشح العرق غزيرًا فوق وجهى وجبهتى ، فيما تابع (جلال) بسمة ذات مغزى :

ـ .. لقد تجاوزتما كل الحدود المسموح بها ، واقتربتما من منطقة محرمة عليها لافتة تحذير واضحة (ممنوع الاقتراب) خطر الموت ، لذا فيجب أن تتقبلا النهاية بصدر رحب ، إنها النتيجة الطبيعية للعبث حيث لا يجب العبث ..

أخرج الدكتور (حنفى) سن المحقن من القارورة الأولى ، وغرسه ـ هو نفسه ـ فى القارورة الثانية ، ثم اتجه ناحيتى ورفع كم ملابسى المنزلية ..

همهمت بقوة وحاولت التملص والمقاومة دون جدوى ..

ـ .. هونى عليك يا عزيزتى .. هونى عليك ..

قالها (جلال) وهو يتلذذ بمراقبتى أتعذب ، وأغمض عينى فى ألم عندما اخترق السن وريد ذراعى الأيسر ، ثم أسكن تمامًا ، وأغمض عينى ..

وأغيب عن العالم تمامًا ..

* * *

الدوامة تدور بى كإعصار ..

أمد يدى فلا ينجدنى أحد ..

أصرخ فلا يصل الصوت ..

أراه واقفًا يحاول مد يد من الظل نحوى ..

دون جدوى ..

دون جدوى ..

* * *

أفقت فجأة فى منتصف الطريق إلى حيث لا أدرى أين ..

مكومة بجوار الأستاذ (هلال) فى العربة الخلفية لسيارة نصف نقل ، وهواء الليل البارد يصفعنى ويطيّر خصلات شعرى القصير ..

إلى أين ؟! إلى حيث لا أدرى ..

القمر فى قلب سماء الليل ، النجوم لامعة وصافية ، والسيارة فى طريقها تتعثر فى الرمال والحصى ..

توقفت السيارة بعد مسافة ليست بالقصيرة ..

أغمضت عينى متظاهرة بالاستمرار فى الغيبوبة ، وسمعت صوت انفتاح بابى السيارة الأماميين ، ثم صوت الأقدام تهبط وتسير ، ثم عملية فتح باب العربة الخلفية ..

ـ هيا أسرع ..

ـ احملهما برفق ..

ـ لا تخف ، لن يفيق أى منهما قبل يوم كامل ، المخدر الذى أخذاه كفيل بتنويم فيل ..

سمعت جسد الأستاذ (هلال) يُجَر على أرضية العربية الخلفية ، قبل أن يسقط خارجها ..

جسدى أيضًا جرجروه ، وسقطت عند الحافة فوق أرض رملية وحصى مؤلم ..

ـ ما أشبه اليوم بالبارحة ، هل تذكر ما فعلناه مع ذلك الصحفى منذ ثلاث سنوات ؟!

ـ لابد أن بقاياه قد أتت عليها الذئاب تمامًا ..

ـ وما أن الذئاب من التهامه قامت به الغربان فى الصباح ..

ـ هيا بنا ، لا يجب أن نتأخر حتى نوصل الباشا إلى المطار ..

ـ إلى اللقاء أيها العزيزان ..

صوت انغلاق بابى السيارة ، صوت المحرك يدور ، صوت السيارة تبتعد ..

ثم السكون إلا من همهمة الريح الخفيفة ، وعواء الذئاب البعيدة ..

فتحت عينى ، نظرت للقمر والنجوم فى قلب ظلام السماء ، تدفق (الأدرينالين) فى عروقى ، وقررت أن أقاوم ..

نهضت ، مازال القيد يكبل يدى وقدمى ، والشريط اللاصق فوق فمى ..

نظرت حولى فى الظلام فلم أميز إلا المدى المفتوح ، وأضواء بعيدة جدًا تختفى عند نهاية المدى ، ربما تكون أضواء أعمدة إنارة أو ...

لتكن ما تكون ..

على أن أتحرك قبل أن يقترب عواء الذئاب أكثر !

نهضت ، حاولت الحجل فى قيودى ، لكنى سقطت فوق جسد الأستاذ (هلال) الهامد تمامًا ..

لهثت ، لن أستسلم مهما يكن ..

على صدر الأستاذ (هلال) حركت وجهى مرارًا حتى يتحرك الشريط اللاصق من فوق فمى ، جاهدت للحركة رغم الصعوبة ، وبالفعل ..

تزحزح الشريط اللاصق قليلاً ، ثم انفك تمامًا ..

أخيرًا تحرر صوتى المكبوت ..

صرخت طويلاً ، لكن النتيجة المتوقعة أن أحدًا لم يسمعنى ..

من يمكن أن يسمع فى هذا المدى المفتوح من الجهات الأربع تحت سماء الليل والصحراء ؟!

ملت على الأستاذ (هلال) ، أعتقد أن صدره لا يتحرك وأنه لا يأخذ شهيقًا أو زفيرًا ، يجب أن أسرع حتى أحضر له إسعافًا ... إن صمد حتى النهاية ..

يجب أن أحرر قدمى أولاً ..

استلقيت على الأرض ودفعتُ قدمى إلى فمى المحرر ، حاولت ـ رغم الصعوبة الأليمة ـ أن استخدم أسنانى فى تخفيف ضغط القيود ..

حاولت وحاولت ، وعواء الذئاب يقترب أكثر ..

حاولت وحاولت ، ونجحت فى النهاية ..

انفك الحبل قليلاً عن قدمى ، فقفزت واقفة ، وبعد عدة حركات بقدمى تحررت تمامًا ..

لهثت من التعب والانفعال ..

أستطيع الآن الركض ..

الركض ..

الركض ..

إلى أين ؟!

لا يهم ..

إلى أى جهة قريبة يمكن أن أراه على المدى ..

نحو الأضواء وإن كانت بعيدة ..

الركض ..

الركض ..

الركض ..

نال منى الإرهاق ، وبلغ بى اللهاث مبلغه ، وأنا أصل فى النهاية إلى لافتة تخرج لى لسانها ساخرة تحت كشاف ضوء قوى :

ممنوع الاقتراب أو التصوير

NO PHOTOS

لكنى اقتربت واقتربت وآخر ذرة من الطاقة تتبدد فى جسدى ..

ـ من هناك ؟! قف عندك ..

صوت جهورى يصرخ بى وأنا أتقدم من سور عال مكلل بالأسلاك الشائكة ..

نظرت إلى جهة الصوت ، ورأيت جنديًا يقترب مشهرًا سلاحه ..

إنها منطقة عسكرية إذن ..

اقترب منى الجندى مذهولاً ، وهتف فى غير تصديق :

ـ ماذا تفعلين هنا يا امرأة فى هذا الوقت ؟!

مظهرى الأشعث ، ارتعاشى ولهاثى ، وعيناى الحمراوان كالدم ..

هنا فقط انهرت على ركبتى ..

هنا فقط بكيت ..

انهمرت دموعى ..

هنا فقط ، بعد أن غمرنى الإحساس بالأمان ..

أخيرًا ..

★ ★ ★

ختـــــام

بعد عدة أيام كنت أرتقى درجات سلم متآكلة إلى شقة فى منطقة (الشيخ رمضان) بحى (شبرا) ، وفقًا للعنوان المدون فى بطاقة أحملها بحرص ..

توقفت أمام الشقة التى تحمل بابها لافتة (سبعاوى أبو الحمد المحامى) ، تحت مصباح يصدر منه ضوء أخضر شحيح ، استطاع أن يعكس التحدى والإصرار المائجين فى مقلتى ..

تغيرت كثيرًا فى الأيام الماضية ..

تغيرت كثيرًا ..

أكثر مما كنت أتوقع ..

ضغطت زر الجرس فى ثقة ، فانفتح الباب بعد هنيهة ، وظهر خلفه وجه الأستاذ (سبعاوى) بالأنف الطويل والعينين الحادتين والرأس الأصلع ، وإصبع الكفتة بين إصبعيه ما زال يصدر إشارات الدخان ..

ـ فى موعدك تمامًا ..

قالها وهو يفسح لى مجالاً للدخول ، فدخلت دون أنطق أو أبتسم ..

مكتبه فى الداخل عبارة عن بهو انتظار ملىء بالمقاعد المحطمة فوق بلاط مكسور ، وغرفة صغيرة جدًا تحوى مكتبًا من الخشب الحبيبى تآكل طلاؤه ، ومكتبة صغيرة تحوى مجلدات ضخمة تمرح فوقها الصراصير ، وهناك حمام صغير أيضًا يصدر منه صوت خرير مياه مستمر ..

أدخلنى غرفة المكتب ، وأجلسنى فى مواجهته ، وكان قد أعد قدحين من الشيكولاتة الساخنة قبل قدومى مباشرة على ما يبدو ..

ـ .. تفضلى ، مدى يدك يا عزيزتى ..

سألته :

ـ هل تحوى الشيكولاتة الساخنة أى عقاقير هذه المرة ؟!

ضحك (سبعاوى) ، وقال :

ـ ستلاحظيننى لو فعلتها .. لحسن الحظ لم يطلب منى موكلى أن أفعل شيئًا كهذا مرة أخرى ..

بتحليل الدم بعد حادث العثور علىّ فى الصحراء وجدوا أننى قد تناولت كمية من عقار (النالوكسون) عن طريق الفم ، وهو العقار الذى يفسد مفعول (المورفين) ، والذى حافظ على حياتى بفضل السيد (مس) مرة أخرى ، ومبعوثه القصير أيضًا ..

لم أكن قد تناولت قبلها سوى الشيكولاتة الساخنة معه فى (بيكرى) مصر الجديدة ، ويبدو أنه قد نجح فى دس العقار داخل مشروبى دون أن ألحظ ، وها هو ذا يعترف أيضًا ..

رشفت من الشيكولاتة الساخنة ، وأنا أنظر فى الجريدة المفتوحة أمام (سبعاوى) على مكتبه ، بينما هو يقول :

ـ .. لقد فروا فى الوقت المناسب تمامًا ، كأنهم كانوا يشعرون بما سيحدث لهم ..

لقد كان يقرأ عن سفر عائلة (البحراوى) كلها إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) ليلة الحادث ، هجرة جماعية ، بالأحرى هروب جماعى بعد أن أفسدوا ما أفسدوه وأثروا على حساب المواطن البسيط ، الذى يضع أمواله فى بنوك تمنحهم القروض بلا ضمانات ..

إنها سفرة سنوية تقوم بها العائلة المكونة من أكثر من عشرين فردًا إلى منزلهم الفاخر فى ضاحية (بروكلين) بولاية (نيويورك) ، فى الغالب كانوا ينوون العودة لولا أن أرسل السيد (س) صور المستندات التى تدينهم إلى النيابة العامة بعد أن احترقت الأصول ، فتفجرت الفضائح على صفحات الجرائد كلها ، ولم يجرؤ أى منهم على العودة ..

أراهم بعين الخيال ينعمون الآن بأرصدتهم البنكية فى (سويسرا) و(بروكلين) ، بعد أن فعلوا بى وبالأستاذ (هلال رضا) رحمه الله ما فعلوا ..

نعم ، لقد لقى الأستاذ (هلال) ربه يومها ، فقد كان مريضًا بداء السكرى ولم يتناول دواءه لمدة ثلاثة أيام ، بالإضافة لجرعة (المورفين) المهلكة التى تزيد عن المائة ملليجرام ، والتى لم يكن مجهزا بعقار مضاد لها مثلى ..

جالت هذه الحقائق فى ذهنى للحظة خاطفة قبل أن أسأل السيد (سبعاوى) :

ـ كنت أريد أن أعرف ، لماذا لم يرسل السيد (س) المستندات الأصلية إلى النيابة مباشرة دون أن يدخلنى فى متاهة الدم والنار هذه ؟!

هزّ (سبعاوى) كتفيه قبل أن يقول :

ـ لم يخبرنى ، رغم يقينى أنه لا يقدم على فعل إلا بسبب ..

ثم إنه مال نحوى سائلاً :

ـ .. أنا الآن الذى أريد أن أعرف سبب اتصالك المفاجئ السار بى يا صغيرتى !

قلت فى جمود :

ـ رغم يقينى بأنه يعرف عنى كل شىء ، إلا أننى أريدك أن تنقل له قرارى الأخير ..

ابتسم فى مكر :

ـ بالسفر إلى (بروكلين) ؟!

هززت رأسى فى إيجاب ، وقلت دون أن تدهشنى معرفته :

ـ أجل ، وملاحقة (جلال البحراوى) من أجل أن أنال انتقامى ، وثأر الأستاذ (هلال) رحمه الله ..

لوح (سبعاوى) بسيجارة فى الهواء :

ـ لا تقلقى ، إنه يعرف كل شىء ..

إنه يعرف إذن أننى بعد تماثلى للشفاء من الصدمة قررت أن أمد جسور التواصل مع أبى ، وأن أستغل ميراثى الصغير من أمى لكى أسافر إلى (بروكلين) فى خلال يومين ، وقد حجزت التذكرة بالفعل ..

يعرف إذن أننى سوف أسافر بصحبة أبى الذى سوف يحضر مؤتمرًا طبيًا فى (نيويورك) ، ثم يقضى هناك بعض الوقت لينال علاجًا طبيعيًا على ساقه المصابة ..

يعرف إذن أن أبى لا يعرف بغرض سفرى الحقيقى ..

الانتقام ..

مادام القانون عاجزًا عن ملاحقة هؤلاء الذئاب ، علىّ إذن أن أقوم بهذه المهمة بنفسى ..

ـ .. وينصحك بأخذ الحذر ..

نظرت إلى (سبعاوى) ، وحلقات الدخان التى ينفثها فى الهواء ، ثم نهضت مغادرة مكتبه على الفور ..

أملك الآن نقطتان هامتان قد تصبحان مفصلى تحول فى علاقتى بالسيد (س) ..

هذا الرجل العجيب ومكتبه الأعجب ..

والبصمة التى يستميت (هشام) الآن فى محاولة العثور عن صاحب لها ..

من يدرى ؟! ربما بعد عودتى من (الولايات المتحدة) يكون قد عثر على هوية السيد (س) بالفعل ، فيزول عنه غموضه الأبدى ..

وترتفع عنه أخيرًا ستائر العدم السرمدية !

* * *

{ تمت بحمد الله }

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

د. محمد سليمان عبد المالك

ممنوع الاقتراب

عندما تكتشف (نسرين الجبالى) سراً غامضاً يتعلق بحياتها العائلية ؛ تقرر فجأة أن تتخذ قراراً مصيرياً لتأخذ حياتها مجرى آخر ، غير أنها تتورط فى حادث اختفاء غامض لشخصية مهمة فى عالم الصحافة ..

مع مضى الأحداث تكتشف المزيد من الأسرار الرهيبة ، ومع دخول السيد (س) الذى لا يعرفه أحد كطرف فى الصراع ، تتشابك الخيوط ، وتتقاطع الخطوط ، ويكشر الذئاب عن أنيابهم ، متوعدين بالموت لكل من تسول له نفسه تجاوز لافتة (ممنوع الاقتراب) ..!

مغامرات س

الثمن فى مصر ٢٥٠ وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم

(حسناء بروكلين)

المؤسسة العربية الحديثة